

اختتام سلسلة
المحاضرات السنويّة
للمجلس العربي للعلوم الاجتماعيّة
المجلس العربي
للعلوم الاجتماعية
Arab Council
for the Social Sciences
Conseil Arabe
pour les Sciences Sociales
حنّا
بطاطو

"اختتام سلسلة المحاضرات السنويّة"

للمجلس العربي للعلوم الاجتماعيّة

حنّا بطاطو





صدر عام 2019 عن المجلس العربي للعلوم الاجتماعية
بناية علم الدين، الطابق الثاني
شارع جون كينيدي، رأس بيروت
بيروت، لبنان

تمت الطباعة في لبنان.

ISBN 978-9953-0-4816-1

المحتويات

مقدمة

يختتم المجلس العربي للعلوم الاجتماعيّة في هذا الكتاب سلسلة محاضرات الأستاذ حنا بطاطو بعد ثلاث محاضرات قدّم أولاها في بيروت-لبنان (2015) الدكتور سليم تماري بعنوان: «ثورة 1908 الدستورية كمرحلة فاصلة في تاريخ بلاد الشام: قراءة في إشكاليات التاريخ المحلي»، وثانيتها في عمّان-الأردن (2016) الدكتورة دينا رزق خوري بعنوان: «المجتمع والتاريخ في العراق بين حنّا بطاطو وعلي الوردي»، وثالثتها في تونس العاصمة-تونس (2017) الدكتور ثابت عبدالله بعنوان: «تاريخ الحزب الشيوعي العراقي بين الأكاديمي حنّا بطاطو والمناضل السياسي عزيز سباهي»، فيما اجتمع المحاضرون الثلاثة في الجلسة الختامية في بيروت-لبنان (2019) لاختتام هذه السلسلة التي تكرّم مؤرّخًا عالميًّا وخبيرًا مرموقًا في شؤون العالم العربي المُعاصر.

ويحتضن هذا الكتاب إضافة إلى المحاضرات الثلاث كاملةً، تعقيبًا للدكتور حيدر سعيد، وشهاداتٍ لمجموعة أساتذة وطلاب عاصروا الراحل بطاطو وعاشوا معه وقرّروا أن يرووا في نصوصٍ قصيرة ما عايشوه مع المؤرخ الكبير وهم: الدكتور طارق متري، والدكتور فيليب س. خوري، والدكتور تيد سويدنبرغ. فضلًا عن ذلك، يضمّ الكتاب شهادتَين لفردَين من عائلة حنا بطاطو عاشا معه وكانا بقربه في لحظاته الأخيرة وهما: ابن شقيقته شكري عبدالله، وابنةُ شقيقه براندا رينود ديفس. ويغتني الكتاب بمجموعة قصاصاتٍ من صحف نشرت مقالاتٍ عن حنّا بطاطو في حياته وبعد رحيله وكتبها صحافيون وباحثون من عارفي بطاطو ومتابعيه. ويحتضن الكتاب سيرة ذاتية للراحل بطاطو، ناهيك عن صور خاصّة له في طفولته ومراهقته وبين أفراد أسرته زوّدتنا بها عائلتا بطاطو ورينود. ويُختتم ببيليوغرافيا لأعمال الراحل بطاطو.

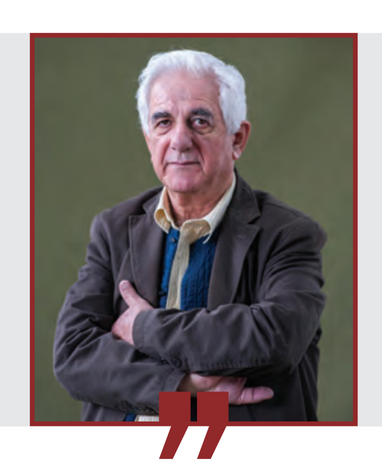
ويندرج هذا الكتاب في خانة سعي المجلس العربي للعلوم الاجتماعيّة إلى توثيق أعمال الأستاذ بطاطو للمساهمة في جعلها معروفة أكثر ونشرها على

نطـاق أوسـع. ويأتـي هـذا الكتـاب كلفتـةٍ تكريميّـة فـي اختتـام السلسـلة التـي يصبـو المجلـس العربـي للعلـوم الاجتماعيّـة مـن خلالهـا إلـى الترحيـب بعلمـاء بارزيـن فـي المنطقـة العربيـة وتقديـم أعمالهـم وتعزيـز النقاشـات حـول القضايـا المعاصـرة والتحديـات التـي تواجـه عالمنـا العربـي اليـوم، فضـلًا عـن استـحضار التاريخ وإرث الماضـي. وارتـأى المجلـس أن تحيـي السلسـلة الأولـى ذكـرى الأسـتاذ حنّـا بطاطـو عبـر تقديـر أعمـال المـؤرّخ والعالـم السياسـي الفلسـطيني ومسـاهماته بحيـث تُعـدُّ أعمالـه التـي تناولـت العـراق وسـوريا مـن أبـرز الدراسـات عـن الـدول العربيّـة الحديثـة ومجتمعاتهـا.

المحاضرة الأولى

(بيروت، لبنان 2015)

يومٌ عصيب في جبل النار
حكايات الثورة والثورة المضادّة في نابلس

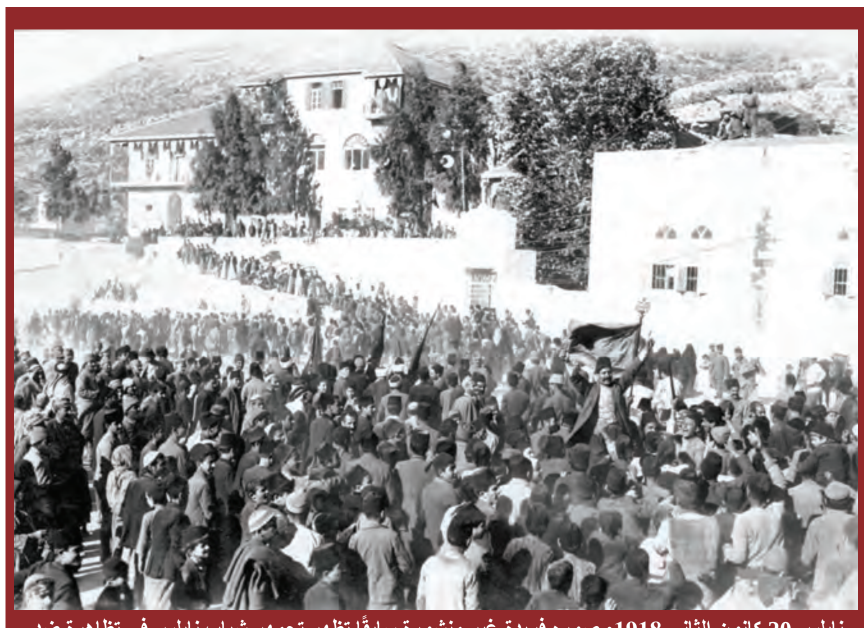


سليم تماري

أستاذ علم اجتماع في جامعة بيرزيت، وأستاذ مساعد في مركز الدراسات العربية المعاصرة في جامعة جورج تاون. هو كبير الباحثين في مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة، ومدير سابق لمؤسسة الدراسات المقدسية التابع لمؤسسة الدراسات الفلسطينية، وهو رئيس تحرير Jerusalem Quarterly وحوليات القدس. ألّف العديد من الأعمال عن الثقافة الحضرية، وعلم الاجتماع السياسي، والسيرة الذاتية، والتاريخ الاجتماعي، وركّز بشكل خاص على فلسطين ومنطقة شرق المتوسط.

تستلهم هذه الدراسة قراءة جديدة لتاريخ فلسطين وبلاد الشام المعاصر من خلال منهجية حنا بطاطو في معالجة التاريخ الحديث للعراق وسورية، وتركيزه على مفهوم «الوكالة» كرافعة جديدة تحليلية لأهمية الطبقة والفئة الإثنية ومجموعات القرابة (عشيرة، قبيلة، حامولة) في دفع أو إحداث الشلل في التغيير السياسي.

ما يهمنا هنا تحديدًا في معالجة لحظة فارقة من تاريخ فلسطين الحديث هو تجليات التحوّلات العامة في مجتمعات بلاد الشام العثمانية من خلال ديناميكية العلاقة في مدينة نابلس بين السلطة المحلية لتجار ووجهاء المدينة مع رموز السلطة البيروقراطية لدولة الباب العالي ونخبها العسكرية في الفترة الزمنية الحاسمة التي فصلت بين الثورة الدستورية للعام 1908 (ثورة الحرية) وبدايات الحرب العظمى التي فجّرت الصراع الفئوي في بلاد الشام بين أنصار النظام الحميدي القديم من جهة ومريدي التحديث العثماني، والداعي للانفصال القومي عن الدولة. وهو صراع ثلاثيّ لم يُحسم إلّا من خلال التدخل الخارجي لقوى التحالف الغربي.



نابلس 20 كانون الثاني 1918: صوره فريدة غير منشورة سابقًا تظهر تجمهر شباب نابلس في تظاهرة ضد احتلال الجيش البريطاني لجنوب فلسطين، رافعين العلم العثماني مقابل المستشفى الوطني. المصدر: مؤسسة الدراسات الفلسطينية

طوال القرن العشرين ومعظم القرن التاسع عشر، كانت مدينة نابلس («دمشق الصغيرة»، كما أسماها المقدسي) تستحضر صناعة الصابون، والكنافة، والتساهل مع المثلية. وكانت نابلس أيضًا منطقة انتفاضاتٍ يقوم بها فلاحو أرياف المدينة. وأصبح اسم «جبل النار» (الذي نالته في خلال ثورة 1936) يشكّل مرادفًا لمدينة نابلس وتاريخها، مذكّرًا بثورة قاسم الأحمد ضد جيوش ابراهيم باشا المصرية، وبسلسلةٍ من الانتفاضات التي شهدتها الحقب العثمانية، والانتدابية البريطانية، ومن ثم فترة الاحتلال الإسرائيلي.(1)

وفي أحيانٍ عدة، يُنظَر الى انتفاضة قاسم الأحمد، وبشيءٍ من المبالغة، كنقطة تحوّلٍ في عملية تشكُّل الكيانية الفلسطينية، ولكن نادرًا ما نقرأ عن نابلس كمركز للنشاطات المضادّة للثورة. وكان المؤرخون المحليون حريصين على تسجيل هذا الوجه الآخر للطبيعة النابلسية، من خلال تركيز اهتمامهم، بشكلٍ أساسي، على الثابت، والمستمرّ، واليومي. وفي هذه النبذة التاريخية، سأقوم بتفحُّص حقبةٍ قصيرةٍ ومفصلية، تلك التي التفَّت خلالها المدينة حول موقفٍ معارضٍ لإطاحة النظام المستبد لعبد الحميد الثاني، ولصالح استرجاع الطغيان السلطاني.

وفق معظم السرديات التي سُجّلت في ذلك الحين، فإن الأحداث التي رافقت ثورة تركيا الفتاة و(إعادة) تبنّي الدستور المُعلّق (إكينشي ميشروتيات ديفري) - في نيسان/أبريل 1908، شكّلت لحظةً محورية بالنسبة إلى المقاطعات العربية، وفلسطين بشكلٍ خاص. فهي بشَّرت بنهاية الحكم الاستبدادي للسلطان عبد الحميد وأنهت التحكُّم بالصحافة والرقابة عليها، وسمحت بإعادة الحياة للنشر وبانتشار الصحف والكتب والكراسات وبحرية التجمّع، وحتى، ضمن حدودٍ معينة، بتشكيل الأحزاب السياسية في سورية وغيرها – بما في ذلك أحزابٌ تدعو الى الحكم الذاتي للولايات. وأخيرًا، هي التي أعادت الاعتبار إلى نظام المشاركة الديمقراطية (المُقيَّدة) لكل الجماعات الإقليمية والإثنية في البرلمان في سياق فكرة «العثمانلية» - ايديولوجية – المواطنة العثمانية المشتركة.

وغطّت التقارير والصور على نطاقٍ واسع أخبار احتفالاتٍ جماهيرية أُقيمت، ابتهاجًا بـ «إعلان الحرية»، في الساحات العامة لبيروت ودمشق ويافا (أمام

«سـرايا» المدينـة) والقـدس، وكذلـك فـي عـددٍ كبيـرٍ مـن مراكـز الأقضيـة، مثـل طرابلـس ونابلـس واللاذقيـة وزحلـة. وفـي حيـن كان الموظفـون الإقليميـون هـم الذيـن نظّمـوا العديـد مـن هـذه الاحتفـالات، إلا أن الكثيـر منهـا عكَـسَ تعبيـرات دعـمٍ عفويـة للثـورة. ورغـم ذلـك، هنـاك بعـض الروايـات المنقولـة التـي تختلـف مـع هـذا الإجمـاع الظاهـري حـول مضمـون هـذه الاحتفـالات، وعلـى الأقلّ فـي حالـةٍ واحـدة، تأريـخ إحسـان النمـر عـن نابلـس، هنـاك موقـف اعتـراضٍ حـادّ يـرى فـي الثـورة حدثًـا تراجعيًّـا، وطعنـةً فـي الظهـر، وحتـى «لحظـة مهزلـة». فالنظـام الجديـد، تحـت سيطرة لجنـة الاتحـاد والترقـي ومـن أعقبهـا فـي الحكـم فـي العـام 1913، لـم يحقّـق الحريـة واللامركزيـة، بـل فـرض المزيـد مـن المركزيـة، وتطبيقًـا منهجيًّـا للحكـم البيروقراطـي، كمـا عمـل علـى «تتريـك» الجهـاز الإداري، بحسـب رؤيـة إحسـان النمـر.

وتخضـع الثـورات لإعـادة نظـر ودراسـة مـن قبـل المؤرخيـن بشـكلٍ مسـتمرّ، وهـو مـا ينطبـق علـى الثـورة العثمانيـة، خصوصًـا فـي ضـوء تفاعـلات «الحـرب الكبرى» وتداعيـات ترتيبـات سـايكس بيكـو. فاسـتذكارات مئويـة أحـداث 1908 – 1909، قبل سـنواتٍ قليلـة، والمحـاولات التـي جـرت لإحيـاء الفكـرة العثمانيـة، والتـي رافقـت سـنوات الحـرب فـي سـورية والعـراق، أعـادت بعـث الاهتمـام بكيفيـة التعامـل مـع هـذه الأحـداث فـي التسـجيلات التأريخيـة المحليـة، بمـا يلقـي ضـوءًا جديـدًا علـى مـا كان يحـدث فـي المـدن، وفـي الأريـاف. وفـي هـذا الحيّـز، نتفحّـص كيـف تعامـل اثنـان مـن المدوّنيـن «المحليّيـن» لتاريـخ مدينـة نابلـس – إحسـان النمـر ومحمـد عـزة دروزة - مـع هـذه الأحـداث الخطيـرة. وتعـود أهميـة ذلـك جزئيًّـا لكونهمـا يعتبـران أن نابلـس كانـت لهـا مكانـةٌ اسـتثنائية فـي سـياق الثـورة كمدينـة داعمـةٍ لعبـد الحميـد فـي فلسـطين (منـاع، دروزة)، وجزئيًّـا لأنهمـا افترضـا، ولا سـيما النمـر، أن «ثـورة» تركيـا الفتـاة كانـت حدثًـا هامشـيًّا، إن لـم يكـن مفتعـلًا، فـي نظـر السـكان المحلييـن. بالإضافـة الـى ذلـك، فـإن كلا المؤرّخيـن اعتبـر أن روايـة كلٍّ منهمـا عـن الأحـداث، كمـا سـنرى، شـكّلت «تأريخًـا قوميًّـا»، وليـس مجـرد تأريخٍ محلـيٍّ معـزولٍ لمدينـة.

ومـا يعطـي قـوةً لهاتيـن الروايتيـن هـو ذلـك الحجـم الكبيـر مـن الاسـتقصاء الـذي قـام بـه المؤلّفـان فـي سـياق عملهمـا (وهمـا كانـا ناشـطَين سياسـيَّين، و«مؤرّخَيـن»، كمـا وصفـا نفسـيهما)، وكونهمـا شـاهدَي عيـان ومشـاركَين مباشـرَين فـي الصراعـات

السياسية لتلك المرحلة. ورغم التقاطع الكبير في روايتيهما، فإن دروزة والنمر وقفا في قطبين متعارضين للصدع الفكري في سورية العثمانية. إحسان النمر، وريث إحدى العائلات الأكثر إقطاعيةً في نابلس، كان داعمًا صلبًا للتيارات الإسلامية السلفية وللعثمانية الحميدية، بينما انتمى دروزة، الناشط الشعبي، لفترةٍ قصيرة، الى أفكار لجنة الاتحاد والترقي، وانتقل لاحقًا الى حزب اللامركزية العثماني، وبعد ذلك الى حزب الحرية والائتلاف (حرييت فإتيلاف فيركاست) المعروف أيضًا باسم الاتحاد الحر. وسأتناول هنا روايتَي النمر ودروزة، وأجري مقارنةً بينهما وبين وجهة نظر مقدسية في هذه الأحداث، كما سجّلها وحلّلها روحي الخالدي، الموظف البارز في الدولة العثمانية والنائب في مجلس المبعوثان (البرلمان).

وربما شكّل كتاب «أسباب الإنقلاب العثماني وتركيا الفتاة» (القاهرة، 1908) بقلم روحي الخالدي، والذي صدر مباشرةً بعد الحدث، التقييم الأبكر لـ«الثورة» ولتأثيرها المحتمل على فلسطين والمقاطعات العربية. ورأى الكاتب في أحداث نيسان/أبريل تتويجًا لصراع ما بعد «التنظيمات» العثمانية التي هدفت الى إقامة النظام الدستوري ولامركزية الدولة. وفي الذكرى المئوية لصدور الكتاب، أصدر المؤرّخ خالد زيادة تقييمًا استرجاعيًّا حول تأثيره والإرث المستدام لمؤلّفه.[2] صدر الكتاب قبل خلع السلطان (عبد الحميد) في العام 1909، وقبل استيلاء لجنة الإتحاد والترقي على السلطة، والمحاولة الفاشلة لاسترجاع النظام القديم، بعدما كان قد نُشر في سلسلةٍ من الحلقات في صحيفة رشيد رضا «المنار» (القاهرة).

ويستخدم الخالدي تعبير «الإنقلاب» في حديثه عن الثورة العثمانية، مميّزًا إياه عن تعبير «الثورة»، الذي يوحي، في قاموسه، بمعاني التهييج، والتمرُّد، والعصيان المسلّح. فكلمة «الانقلاب» توصّف، بالنسبة إليه، بدقة، السمات الشاملة البنيوية والجذرية للحركة، في حين أن «الثورة» هي مجرد تمردٍ – قصير العمر، وبتأثيرٍ مستدامٍ محدود. (وقد تغيّر معنى التعبيرين، بعد ثلاثة عقود، في اللغة العربية المستخدمة في الصحافة، ولكن تعبير «الانقلاب» بقي، في اللغة الفارسية، والأوردو، والتركية العثمانية، يُستخدم بمعنى الثورة). فبالنسبة إلى الخالدي، حقّقت الحركة إعادة الاعتبار التي طال انتظارها للحريات الديمقراطية والإصلاحات التي أطلقها الدستور العثماني الأول في العام 1876، وشكّلت تكريسًا لمبادئ مدحت باشا، حاكم سورية، الذي أصبح يعرف باسم

«أبـي الدسـتور». وإذ نـدّد الخالـدي بجهـاز الدولـة القمعـي للسـلطان عبـد الحميـد (من دون ذكـر السـلطان بالاسـم، بشـكلٍ مباشـر)، فهـو توقّـع بدايـة عهـدٍ مـن الفيدراليـة (الاتحاديـة) والحريـات الدسـتورية، والاسـتقلال الذاتـي للأقاليـم، وضمـان المسـاواة للجماعـات الإثنيـة والقوميـة. كمـا توقّـع (علـى خطـأ) أن تتبنّـى لجنة الاتحـاد والترقي نظـام اللامركزيـة. وبشـأن مسـتقبل فلسـطين، ورغـم انتقـاده المعـروف للصهيونيـة، قـارن الخالـدي بيـن إنجـازات المسـتوطنات الألمانيـة واليهوديـة، التـي قيّمهـا إيجابًـا، والإدارة العثمانيـة الفاسـدة للديـن العـام.[3]

لكـن المراقبيـن العـرب لـم يكونـوا جميعهـم مرحّبيـن بأحـداث نيسـان/أبريل 1908 ووعـود جماعـة «تركيـا الفتـاة». المـؤرّخ عـادل منـاع أورد بأنـه كان علـى مؤيـدي لجنــة الإتحــاد والترقــي فــي ســورية وفلســطين بــذل مجهــوداتٍ مــن أجــل تأميــن حضـورٍ شـعبيٍّ فـي احتفـالات دعـم «الثـورة» – بينمـا فـي المـدن الداخليـة، لا سـيما فـي نابلـس، اسـتمرّ التعبيـر عـن الدعـم لعبـد الحميـد والنظـام القديـم، حتـى بعـد خلـع السـلطان. وهـو مـا شـكّل مفارقـةً مـع مـا كانـت عليـه الحـال فـي يافـا والقـدس، حيـث وقفـت الشـخصيات السياسـية المحليـة، والمثقفـون، علـى نطـاقٍ واسـع، وإن لـم يكـن بصلابـة، وراء الحركـة الدسـتورية.

وأحـد أسـباب هـذا الاختـلاف فـي الموقـف، وفـق فرضيـة منـاع، كان التغلغل الواسـع للمشـاريع الأوروبيـة، الاقتصاديـة والثقافيـة، فـي المـدن السـاحلية، مقابـل الاكتفائيـة الذاتيــة الاقتصاديــة النســبية لنابلــس. وعــلاوةً علــى ذلــك، كانــت هنــاك تجمعــاتٌ يهوديـة ومسـيحية سـكانية واسـعة فـي القـدس ويافـا، لهـا علاقـاتٌ كثيفـة بالأوسـاط الرسـمية والخيريـة الغربيـة.[4] وفـي كلتـا المدينتيـن، كان اليهـود والمسـيحيون، فـي غالبيتهـم، مواطنيـن عثمانييـن. وفـي حالـة السـكان اليهـود، كانـت الصهيونيـة حقّقـت قـدرًا محـدودًا مـن الاختـراق - اللهـم إلا بيـن مـن كانـوا مهاجريـن أوروبييـن –، حيـث كانـت كلتـا الجماعتيـن السـكانيتين السـفاردية والأشـكنازية مناهضتيـن للصهيونيـة الــى حــدٍ كبيــر. وفــي حالــة المســيحيين – وعلــى الأقــلّ بالنســبة إلــى الطائفــة الأرثوذكسـية الغالبـة -، كان الخـلاف بيـن الجمهـور الغربـي المسـيحي والبطريركيـة اليونانيـة هـو المسـألة الرئيسـية. ولكـن لـم تكـن أيٌّ مـن هـذه القضايـا ذات أهميـة فـي الصراعـات السياسـية فـي نابلـس، حيـث كان عـدد المسـيحيين واليهـود (السـامريين) هنـاك هامشـيًّا.

وكانـت آراء الخالـدي المؤيـدة لأحـداث ثـورة 1908 مصاغـةً كتقييـمٍ عـام لثـورة «تركيـا الفتـاة». ولنفهـم مـا كان يحـدث علـى المسـتوى المحلـي، علينـا أن نلتفت الآن الـى روايتَـي كلٍّ مـن إحسـان النمـر ومحمـد عـزة دروزة عـن مدينـة نابلـس.

«أنا بالكاد أرى فلسطين على الخارطة»

كانـت الخلفيـة العائليـة للنمـر ومراحـل تعليمـه المبكـر حاسـمةً فـي صياغـة نظرتـه «العثمانويـة» للعالـم. وكانـت عائلـة النمـر عائلـةً أرسـتقراطية مـن «الآغـوات» ملتزمـي الضرائـب فـي سـورية وفلسـطين. وكان أسـلافه القدمـاء يتولـون حراسـة طـرق الحـجّ (فـي منطقـة الكـرك). وكانـت مـن بينهـم مجموعـةٌ مـن القضـاة والبيروقراطييـن العثمانييـن (بمـن فـي ذلـك الدفتـردار، المسـؤول الإداري الرئيسـي عـن الوقـف فـي دمشـق، وإحـدى أبـرز مجموعـات ملتزمـي الضرائـب فـي منطقـة نابلـس). وقـد مـرّت العائلـة بمحنـة فقـدان مكانتهـا كأكبـر ملتزمـي الضرائـب فـي المنطقـة لصالـح منافسـيها، آل جـرار مـن جنيـن وآل عبـد الهـادي مـن عرّابـة، خـلال حيـاة والـده إحسـان، نجيـب آغـا النمـر وعمـه حسـين آغـا.[5]

وترعـرع إحسـان فـي الحـيّ السـكني لعائلـة النمـر فـي نابلـس القديمـة، حيـث حصـل علـى تعليـم كُتّـاب قرآنـي تقليـدي مـع شـقيقتيه شمسـة ونبيهـة، ثـم تلقّـى تعليمـه الابتدائـي فـي مكتـب الخـان، وفـي مدرسـة مكتـب رشـيد السـلطانية. وتلقّـى تعليمـه الثانـوي فـي كليـة النجـاح («أسـوأ سـنوات حياتـي»)، حيـث كان أحـد تلاميـذ عـزة دروزة، وناشـطًا محرّضًـا لصالـح «قضايـا عقائديـة». وكقائـدٍ طالبـيٍّ كان لـدى إحسـان مـن الثقـة بالنفـس مـا جعلـه لا يُطـاق. وتـروي نعيمـة زيـاد قصـةً طريفـة عـن ردة فعلـه علـى مديـح دروزة لـه بعدمـا اسـتمع إليـه فـي أثنـاء سـجالٍ عـام، حيـن وصفـه بـ«خطيـب فلسـطين المسـتقبلي». «وردّ النمـر علـى هـذا المديـح: «لا أقبـل هـذا اللقـب – فـإذا كانـت فلسـطين كبيـرة فـي عينيـك، فأنـا بالـكاد أراهـا علـى الخارطـة». وهـو مـا دفـع دروزة للإضافـة آنـذاك: «وهكـذا فأنـت خطيـب العـرب» – فقـال النمـر: «الآن أنـا أقبـل».[6]

وتعـرّض النمـر للطـرد مـن كليـة النجـاح، بسـبب صداماتـه مـع التلاميـذ والمعلميـن حـول «قضايـا دينيـة، وبسـبب تعصّبـه»، فواصـل تعليمـه فـي الكليـة الوطنيـة فـي الشـويفات فـي جبـل لبنـان.[7] ثـم سـعى الـى دراسـة التاريـخ فـي جامعـة بيـروت

الأميركيـة، ولكنـه لـم يتمكّـن مـن ذلـك لأسـبابٍ ماليـة. فقـام بتثقيـف نفسـه بنفسـه بعـد ذلـك، أو كمـا قالـت نعيمـة زيـاد، «هـو تخـرّج مـن جامعتـه الخاصـة»، مـا يفسّـر أسـلوبه الانتقائـي فـي الكتابـة. وانغمـس النمـر فـي قـراءة الكتابـات التاريخيـة الكلاسـيكية كأعمـال ابـن الأثيـر واليعقوبـي وابـن خلـدون. وبعـد الحـرب الكبـرى، نسـج النمـر علاقـاتٍ مـع باحثيـن سـعوديين فـي نجـد وتبنّـى رؤيـةً وهابيـة للتفسـير الدينـي. وهـو قـرأ وتـذوّقَ أعمـال ابـن تيميـة، وابـن القيّـم، وبشـكلٍ خـاص أعمـال محمـد بـن عبـد الوهـاب وسـليمان بـن سـمحان النجـدي (راجـع: عـودات، وزيـاد). ولكنـه تأثّـر كذلـك بالمجدّديـن الإسـلاميين، بعدمـا وصلـت كتاباتهـم إليـه مـن مصـر: وتحديـدًا، جمـال الديـن الأفغانـي، ومحمـد عبـده، والكواكبـي، والغلايينـي، والمنفلوطـي. كمـا كتـب باسـتفاضة فـي صحـفٍ إسـلامية مثـل «الصـراط المسـتقيم» (التـي كان يُصدرهـا فـي يافـا صديقـه عبـد الله القلقيلـي) و«التمـدّن الإسـلامي» (دمشـق)، حـول الموضوعيـن التوأميـن: الجهـاد، وإعـادة التعبئـة الأخلاقيـة للشـباب.[8]

وفـي المجـال الأيديولوجـي، بقـي النمـر ملتزمًـا بإطـار النزعـة العثمانيـة فـي كتاباتـه عقـودًا عـدة بعـد سـقوط النظـام العثمانـي. وبقـي ناشـطًا علـى الصعيـد السياسـي خلال فتـرة الانتـداب، ولكنـه رفـض الانتمـاء إلـى أي حـزبٍ رئيسـي، وطنـي أو إسـلامي. وفـي المقابـل، انخـرط فـي نشـاطاتٍ محليـة ضـد الصهيونيـة والإدارة البريطانيـة. وفـي عشـرينيّات القـرن العشـرين، تعـاون مـع الحركـة النقابيـة العماليـة فـي نابلـس فـي تأسـيس نقابـةٍ لصانعـي الأحذيـة النابلسـيين، بهـدف مكافحـة الاسـتيراد وانتشـار أحذيـة «باتـا» التشيكوسـلوفاكية، والـذي رأى فيهـا تقويضًـا لصناعة الأحذيـة المحلية.

وفـي العـام 1929، تعـرّض للاعتقـال وحُكـم عليـه بالسـجن ثلاثـة أشـهر لقيادتـه تظاهـراتٍ مناهضـة لبريطانيـا.[9] وفـي العـام 1933، أسّـس، بالتعـاون مـع وطنييـن نابلسـيين، «منظمـة حـزب الشـباب» لمكافحـة الهجـرة اليهوديـة الـى فلسـطين. وخـلال ثـورة 1936، فـرّ الـى دمشـق وشـارك فـي تجنيـد المتطوعيـن السـوريين، بقيـادة فـوزي القاوقجـي، للقتـال فـي فلسـطين. ومـع فشـل الثـورة، عـاد وتحـوّل نحـو سياسـات إعـادة التعبئـة الأخلاقيـة الإسـلامية، مُنشِـئًا جمعيـة الهدايـة الإسـلامية لهـذا الغـرض، ولكنّـه فشـل فـي إقامـة أيّ فـروعٍ لهـا خـارج نابلـس. وبعـد حـرب 1948، انسـحب مـن النشـاط السياسـي واقتصـر نشـاطه علـى كتابـة التاريـخ المحلـي. وهكذا،

فـإنّ الكاتـب الـذي «بالـكاد رأى فلسـطين علـى الخارطـة» فـي العـام 1917 أنهـى مسـيرته المهنيـة وهـو يـرى القليـل خـارج تخـوم مدينتـه الأصليـة.

عندما تصبح نابلس مركز العالم!

كرّس إحسـان النمر مجلدًا كاملًا تقريبًا من المجلدات الأربعة لـ«تاريخ جبل نابلس» للتطـورات التـي قـادت الـى أحـداث تموز/يوليـو 1908 وتداعياتها. وفي حين اسـتند باقـي مشـروعه الكتابـي الكبيـر هـذا إلـى قـراءةٍ مدقّقـة لتاريـخ المدينـة مـن سـجلاّت المحكمـة الشـرعية ومـن أوراق عائلـة النمـر وآخرين من شـخصيات المدينة البارزة الأخـرى، فـإن هـذا المجلـد اسـتند الـى مقابـلاتٍ مسـتفيضةٍ مـع مشـاركين محلييـن، وسـجلاّت مجلـس المدينـة، كمـا واسـتذكاراته هـو كشـاهد عيـانٍ علـى الأحـداث.

خلافًـا للمجلـدات الأولـى لسـردياته التأريخيـة عـن نابلـس، تتشـكّل روايـة النمـر عـن الأحـداث فـي هـذا المجلـد مـن خليـطٍ مـن الحكايـات الطريفـة ومـن كتابـاتٍ سـجالية مـع السـرديات القوميـة المناهضـة للعثمانييـن. وهـو يذكّـر القـارئ بـأنّ الحكـم العثمانـي فـي بـلاد الشـام لـم يكـن يعتمـد بشـكلٍ حصريّ، ولا حتى بشـكلٍ رئيسـي، علـى موظفيـن أتـراك، بـل اعتمـد علـى خليـطٍ مـن عـربٍ وأتـراكٍ وعناصـر شركسـية وكرديـة وأرمنيـة وروميـة ويهوديـة. حيـث تعاقبـت علـى شـغل موقـع حاكـم نابلـس فـي خـلال القـرن التاسـع عشـر مجموعـةٌ مـن الشـخصيات العربيـة، فـي غالـب الحـالات: فضيـاء بـك المصـري كان مصريًـا، وسـعيد باشـا كان كرديًّـا مـن دمشـق، وعزيـز بـك العظمـة كان مـن دمشـق،



هل كان إنقلاباً أم ثورة؟ مسودة كتاب روحي الخالدي «أسباب الإنقلاب العثماني» مكتوبة بخط يده، أنجزت في مدينة بوردو في 7 تشرين الأول/أكتوبر 1909، المصدر http://khalidi.org/index.htm - تعليق صورة صفحة بخط الخالدي.

وحسين بك الأحدب كان بيروتيًّا، وهولو باشا العابد كان أيضًا دمشقيًّا.[10]

واستنادًا الى إدراكه للمزاج المتمرد لنابلس منذ أيام الحملة المصرية، «بدأ الباب العالي يركّز في تعييناته في المنطقة على أشخاصٍ ذوي وزنٍ وكفاءة».[11] ويشير النمر الى أنها كانت مركز الانتفاضة الفلاحية الكبيرة ضد حكم ابراهيم باشا المصري في ثلاثينيّات القرن التاسع عشر. وكانت هذه الانتفاضة بقيادة قاسم الأحمد، من جماعين، والذي تمكّن من السيطرة على القدس في العام 1834 وأدت الانتفاضة الى بروز قيادة آل عبد الهادي وحلفائهم، وانحسار دور عائلات الآغا وطوقان. وأدّت استعادة الحكم العثماني من المصريين الى ردّ الاعتبار لنابلس كمركزٍ اقتصاديٍّ رئيسي في فلسطين وجنوب سورية، ولكن فقط لفترةٍ قصيرة.[12]



صورة جماعية لأعضاء تركيا الفتاة في منتجعٍ بالقرب من دمشق. في الصف الأسفل (من اليسار الى اليمين): توفيق الهيّاني، فايز الشهابي، رفيق التميمي، عوني عبد الهادي، أحمد قدري، معين الماضي، توفيق اليازجي، وسعيد طلب. وفي الصف الوسط (من اليسار الى اليمين): وصفي الأتاسي، أحمد مُريوِد، شكري القوتلي، بهجت الشهابي، سليم العطار، زكي التميمي، حسني البرازي. وفي الصف الأعلى (من اليسار الى اليمين): عادل العظمة، رشدي الحسامي، رياض الصلح، سعدالله الجابري، عفيف الصلح، عزة دروزة.

ويبدو أن التأييد للجنة الاتحاد والترقي في سورية الجنوبية (أي فلسطين وشرق الأردن) كان متمركزًا بالأساس في متصرّفية القدس. وبين زعمائها قائد الدرك في القدس، سامي بك الحلبي، والشيخ موسى البديري، وهو معلمٌ بارز في المدارس السلطانية. وكان أمين بك، الموظف في مكتب بريد القدس، حلقة الوصل مع لجنة الاتحاد والترقي الأناضولية، وهو كان شقيق طلعت باشا، الذي أصبح لاحقًا وزيرًا للداخلية. وكانت لجنة الاتحاد والترقي المحلية في نابلس مشكّلةً من موظّفين حكوميين ومدينيين متوسطين ومن ضباطٍ في القوات المسلحة المحلية. وهم أنشأوا أول منظمة ثورية في البلد، كانت معروفةً باسم «نادي القلب». وتشكّلت لجنة القيادة من حسني بك، قائد حامية نابلس، وأمين بك السقُّلي، قائد قوات «الرديف» (المساعدين العسكريين)، والحاج محمد عبده رئيس بلدية نابلس، وحيدر بك طوقان (من تجار المدينة). والتحق بهم بعد ذلك عبد الفتاح ملحس، وراغب آغا النمر – الذي أصبح كبيرَ مفتشي منظمات الحزب في سورية الجنوبية ككل (106).

وعندما وصلت الى نابلس أنباء تمرُّد الجيش الثالث في مقدونيا، والإعلان اللاحق عن الدستور في اسطنبول، في أواسط نيسان/أبريل 1908، رفض الحاكم أمين الترزي نشر النبأ، كتعبيرٍ عن الولاء للسلطان. في حين اتُّخذ قرار الاحتفال بهذا الحدث من قبل رئيس البلدية، الحاج محمد عبده – الذي بدأ الاحتفالات من مقرات «نادي القلب». وكانت الاحتفالات باهتةً في نابلس، بينما اتخذت طابعًا حماسيًّا صاخبًا في القدس ويافا وعكا.

نابلس تدعم إعادة الحكم السلطاني

بينما كان النظام الجديد في العاصمة يوطّد اتصالاتِه وسيطرتَه على سورية، وصلت الى نابلس أنباء انقلاب 18 نيسان/أبريل 1909 (المعروف باسم حادث 31 مارس، وفق التقويم العثماني «الرومي»)، معلنةً تعليق البرلمان وإعادة حكم السلطان.(13) «مع إنشاء جمعية الشريعة المحمدية(14) ضد الدستور». كتب النمر: «نهضت كل قطاعات المجتمع النابلسي تدعو الى إلغاء الدستور. ونظّم المتظاهرون مسيرةً نحو ديوان النمر (المجمّع السكني)، حيث قاموا بأداء قسَم الولاء للسلطان عبد الحميد، وعبّروا عن غضبهم من لجنة الاتحاد والترقي وشتموا قائدَيها، أنور ونيازي. وكان الحاج توفيق حماد وحزبه يقودان الحركة،

في مواجهة رئيس البلدية محمد عبده وأنصاره (من لجنة الاتحاد والترقي)». [15] لكن حركة «الاسترجاع» هذه كانت قصيرة العمر، حيث تمت إعادة «الثوار» الى السلطة بسرعة بعدما قامت وحداتٌ من القوات المسلحة، مرسلةً من سالونيك من قبل محمود شوكت باشا، بإحباط المحاولة الإنقلابية، وأقدمت على خلع السلطان عبد الحميد.

في هذه الأثناء، قام أنصار لجنة الاتحاد والترقي في نابلس (التي كانت لا تزال حركةً سرية)، الذين كانوا معروفين في الصحافة العربية باسم «الاتحاديين»، بدعوة المتطوعين الى القتال دفاعًا عن الحكومة «الدستورية» في العاصمة. وأصبح «نادي القلب» مركزًا للتجنيد، وانطلاقًا من حماسة اللحظات الأولى، أبرق الاتحاديون الى اسطنبول يزعمون بأن 60.000 متطوع في طريقهم لدعم الثورة، انطلاقًا من فلسطين، وفق ادعائهم. وهذا الادعاء العددي لم يترجم سوى بمشاركة خمسة مقاتلين من نابلس فقط -حسب النمر-، بما في ذلك رئيس سجل النفوس صائب أفندي، وظاهر أفندي عبده. وعند وصولهم الى جنين، كانت الحركة المضادة للثورة قد أُحبطت، وكان عليهم أن يعودوا الى نابلس سيرًا على الأقدام، حيث تعرّضوا للسخرية وألقيت عليهم الحجارة والطين. [16]

وعندما تمّت هزيمة الحركة الاسترجاعية، تحرّك «الاتحاديون» لمعاقبة أنصار النظام القديم و«إعادة فرض القانون والنظام». ويمكن تلمُّس مدى اتساع الدعم للنظام الحميدي من حجم القوة التي استُخدمت لتأديب المدينة. حيث جرى استجلاب أربع كتائب لنابلس، بحسب النمر، لقمع أنصار السلطان وحركة الشريعة. [17] كما تمّ سحب الحاكم أمين بك الترزي واستبداله بفتحي سليمان باشا. وتمّ تشكيل «لجنة تحقيق» لإعداد تقريرٍ والتوصية بإجراءاتٍ عقابية. وفي المحصلة، تمّ نفي الأعضاء الموالين من عائلات طوقان وحماد وعبد الهادي، وحرمان أقاربهم من الوظائف العامة خلال فترة هيمنة لجنة الاتحاد والترقي في السلطنة. [18] وقد تكون إشارة النمر الى أربع كتائب مبالغًا فيها، ولم يكن من الممكن التأكُّد من صحتها من مصادر محلية أخرى، ولكن إشارته الى وجود فرقٍ عسكرية في المدينة، والى العقوبة التي نالت من قيادة آل حماد، تتقاطع مع رواية دروزة.

مصداقية إحسان النمر كمؤرّخٍ محلي

وتثير قصة العملية الانقلابية المضادة للثورة وأصداؤها النابلسية تساؤلاتٍ حول مصداقية إحسان النمر كمؤرخٍ محلي، على مستوى التفاصيل العملية الملموسة، كما على صعيد مشروعه التحليلي، إجمالاً. أظهر النمر كفاءةً عالية في استخدام سجلّات المحاكم والأوراق العائلية في رسم ملامح التاريخ الاجتماعي لنابلس في العهود المبكّرة والمتوسطة للحكم العثماني (المجلدان 1 و2). ولعمله قيمةٌ استثنائية في تقييم نظام الحكم ومدى إنجاز متنفذي نابلس للاستقلال المحلي،[19] كما وفي معاينة كيفية إدماج القانون العرفي بالقانون المدني الإسلامي،[20] وفي شرح كيف أصبحت اللصوصية عاملًا في تعزيز نظامٍ للأمن الداخلي في نابلس.[21] ورغم أسلوبه الانتقائي والخارج عن المألوف، فإن كتاباته في هذه الأقسام يمكن أن تُصنّف ضمن إطار تراث مدرسة الحوليات للتفسير التاريخي، بحيث يمكن اعتباره ملتزمًا بها ربما من دون قصدٍ منه.

وأعمال النمر ذات قيمةٍ مميزة في رسم ملامح الاستقلال الذاتي لجبل نابلس وجنوبي فلسطين في عصر الإقطاعيات العسكرية (التيمار السباهي) في القرن الثامن عشر، وارتباطه مع إدارة طرق الحج.[22] وكثير من كتاباته التي أتت بعد ذلك في مؤلّفه البارز «تاريخ جبل نابلس» تناول الصراع الثالوثي في عهد «التنظيمات» بين الحكومة المركزية العثمانية، من جهة، و«شيوخ النواحي» الذين كانوا يتحكّمون بجباية الريع الزراعي، من أمثال آل جرار من صانور وآل عبد الهادي من عرّابة، من جهةٍ أخرى، والأرستقراطية المدينية لنابلس، خصوصًا آل النمر/آغا وآل طوقان، من جهةٍ ثالثة.

وكانت حملة ابراهيم باشا المصرية (1830 – 1840) قد شكّلت نقطة تحولٍ في هذا الصراع، تمثّلت في الانتفاضات الفلاحية (قاسم الأحمد) وصعود عشيرة عبد الهادي كقوةٍ مهيمنة في مقاطعة نابلس. وفتحت استعادة الحكم العثماني زمامَ الأمور في سورية (1841) المجال أمام مرحلةٍ من السيطرة الحكومية المركزية ومن إضعاف الإقطاع الريفي لصالح متنفذي المدن، وهم طبقة ملاّكي الأرض التي دمجت بين ثروتها الريفية واستثماراتها في الصناعة (النسيج، الصابون) ورأس المال التجاري.[23]

ويعيد النمر بذور أحداث 1908 و1909، التي نتناولها هنا، لإنشاء أول «مجلس

للإشــارة» فــي المدينــة فــي العــام 1848، فــي ســياق الإصــلاح المدينــي البلــدي العثمانــي. وهـذا المجلـس الاستشــاري، أي مجلـس الإشـارة، هـو الـذي تطـوّر ليصبـح المجلـس البلـدي فـي العـام 1869، وهـو المجلـس الـذي أضحـى سـاحة صـراعٍ بيـن محـاولات الحكومـة المركزيـة للحصـول علـى المزيـد مـن الريـع الريفـي، والنُّخـب المدينيـة النابلسـية المُعـاد تشـكّلها، والتـي سـعت لمقاومـة هـذه التعديـات. ويوفّـر العمـل الرائـد لبشـارة دومانـي حـول تاريـخ جبـل نابلـس تفسـيرًا مهمًّـا لروايـة النمـر، المرتبكـة الـى حـدٍ مـا، لهـذه الأحـداث.[24]

اسـتخدم أعيـان (مدينـة نابلـس) المجلـس للمسـاومة مـع الحكومـة العثمانيـة علـى حدود السـلطة السياسـية وحاولـوا دفـع تفسـيراتهم الخاصـة لمعنـى المواطنـة، والهُويـة، والعُـرف، والتقاليـد. ولـم يكـن لـدى الحكومـة المركزيـة مـن خيارٍ سـوى التعـاون. ولم يكـن باسـتطاعتها حتـى اسـتبدال ملتزمـي الضريبـة بكـوادر بيروقراطيـة مسـتوردة ومدفوعـة الأجـر مـن قبلهـا، وأقـلّ مـن ذلـك إلغـاء نظـام الالتـزام الضريبـي، كمـا كانـت الإصلاحـات المعلنـة تنـوي أن تفعـل.[25]

أحـد أوجـه هـذا الصـراع بيـن الحكومـة المركزيـة ونُخـب المدينـة تمثّـل فـي قـدرة المتنفذيـن، كمـا اسـتمرّ النمـر فـي تذكيرنـا، علـى تفسـير مراسـيم البـاب العالـي وتطويـع التعليمـات الحكوميـة لصالـح النُخـب المحليـة. كمـا نجحـوا فـي أكثـر بكثيـر ممـا حصـل مـع القـدس، وفـي ولايـاتٍ ومناطـق أخـرى، فـي ضمـان تعييـن شـخصياتٍ محليـة، لإدارة قضايـا منطقتهـم.[26]

تبـدأ كتابـات النمـر بإظهـار علامـات ضعـف، رغـم ذلـك، عنـد تناولـه مرحلـة مـا بعـد «التنظيمـات»، ولا سـيّما فـي تعاملـه مـع المرحلـة الدسـتورية الثانيـة، وصـولًا الـى أحـداث الحـرب العالميـة الأولـى فـي نابلـس. وروايتـه لهـذه المرحلـة تسـيطر عليهـا رؤيـةٌ مسـطّحة للتعـارض بيـن قـوى القانـون والنظـام (الحكـم الحميـدي) ومـا يعتبـره لجنـة الاتحـاد والترقـي «العلمانيـة المدمّـرة». وهـو يظهّـر هـذا التعـارض بصـورة صـراعٍ فئـويّ بيـن شـرائح مـن النُخبـة النابلسـية – واضعًـا عائلتـي عبده وملحـس، فـي مواجهـة آل طوقـان والنمـر وعبـد الهـادي. وكلمـا اقتـرب مـن أحـداث 1908 – 1912 (تاريـخ سـقوط لجنـة الاتحـاد والترقـي)، زاد اعتمـاده علـى ذكرياتـه الشـخصية، والمقابـلات مـع رواةٍ محلييـن – أكثـر ممـا اعتمـد علـى توثيـقٍ معتمـد

علـى سـجلاّت المحاكـم والبلديـة.

والسـرد المبالـغ فـي طولـه للأفعـال الفرديـة، والمصائـر المهنيـة الشـخصية، وصعود وانهيـار المكانـة والثـروات العائليـة، تـرد فـي كتاباتـه مـن دون إشـارةٍ تُذكـر الـى المضمـون الاجتماعـي أو المرجعيـة الاجتماعيـة – فالسـياقُ يُفتـرَض أن يكـون بدَهيًّـا بالنسبة إلـى القـارئ، أو هـو يُفسَّـر ببسـاطة كتخـلٍّ عـن الربـاط العثمانـي الإسـلامي. وهكـذا يتحـوّل عنصـرُ قـوةٍ كبيـر فـي روايـة النمـر التاريخيـة المواكبـة للأحـداث – أي الاعتمـاد علـى مقابـلاتٍ شـخصية مطوّلـة مـع «صانعيـن ومشـاركين فـي الأحـداث» – الـى مـا هـو أشـبه بسـردياتٍ غيـر مترابطـة لشـجاراتٍ عائليـة. وتأتـي خلفيـة عـدم الترابـط هـذا فـي سياق إقـرارٍ محتمـل، مـن قبـل المؤلـف، بتراجـع مكانة وسـلطة عائلـة النمـر باعتبارهـا قاعـدةً رئيسـية لـلإدارة العثمانيـة فـي نابلـس.(27) لذلـك نحـن محظوظـون، فـي مجـال الإضـاءة علـى التاريـخ المحلـي لنابلـس فـي تلـك المرحلـة، بوجـود روايـةٍ بديلـة فـي كتابـات محمـد عـزة دروزة.

رؤية عزة دروزة

انطلقـت روايـة دروزة عـن نابلـس (وفلسـطين) فـي خـلال الفتـرة الدسـتورية الثانيـة والحـرب العالميـة الأولـى مـن سـعيٍ مرهـف لإدمـاج مسـارات السـير الشـخصية مـع التحليـل الطبقـي للقـوى المعنيـة. وكمـا إحسـان النمـر، كان دروزة – وهـو كاتـب اليوميـات ومسـجّل الأحـداث غزيـر الإنتـاج – شـاهدًا مباشـرًا علـى التحـوّلات الكبيرة علـى الصعيـد المحلـي، وإن كان مراقبًـا أكثـر نضجًـا وتقدّمًـا فـي السـن، وبالتالـي، أكثـر التزامًـا. وبالإضافـة الـى ذلـك، كان دروزة، وهـو الموظـف الصغيـر فـي خدمـة البريـد المدنـي العثمانـي، منخرطًـا بشـكلٍ مباشـر فـي جهـاز الإدارة، ومنحـازًا فـي الصراعـات السياسـية ذات الشـأن فـي بيـروت ونابلـس. وكان عضـوًا ناشـطًا فـي جماعـاتٍ عثمانيـة معارضـة عـدة مثـل لجنـة الاتحـاد والترقـي، وحـزب الوفـاق، ولاحقًـا، الحركـة الفيصليـة وحـزب الاسـتقلال – الـذي كان عضـوًا مؤسّسًـا فيـه.

وسـعى دروزة إلـى معرفـة خلفيـات الصـراع الاجتماعـي النابلسـي فـي التشـكيلات الاجتماعيـة الجديـدة لنُخَـب المدينـة. حيـث شـهدت نهايـات القـرن التاسـع عشـر تحديـاتٍ فرضتهـا بورجوازيـةٌ تجاريـةٌ صاعـدة علـى العائـلات الإقطاعيـة فـي المنطقـة – آل طوقـان، وآل عبـد الهـادي، وآل النمـر، وآل قاسـم – التـي واصلـت

جمع ثرواتها من خلال السيطرة على حيازة الأراضي في المنطقة في مرحلة ما بعد «التنظيمات» – (دروزة، المجلد الأول، ص. 122 – 124). وشكّل مجلس بلدية المدينة الساحة الرئيسية لهذا الصراع، حيث شهد العام 1911 هزيمة بشير طوقان، «الذي يمثّل تحالف عناصر الإقطاع في المدينة» (ص. 122)، على يد شخصية الحاج توفيق حمّاد المركزية (1863 – 1934).

وقد التفّت البورجوازية التجارية النابلسية حول حزب الجمعية العباسية، المسماة نسبةً الى عباس أفندي خمّاش. ووحّدت الجمعية العباسية، التي أصبحت تُعرف لاحقًا باسم «الجمعية الحمادية»، قوى آل زعيتر والشكعة والمصري وجناحًا صغيرًا من آل عبد الهادي.[28] وكان توفيق حماد كاتب قلم المتصرفية. كما نجح حمّاد في أن يحصل على تعيينٍ له رئيسًا لمجلس بلدية نابلس، ثم انتُخب، بعد فترةٍ وجيزة، عضوًا في البرلمان العثماني الجديد. وتمكّن حزبه من استقطاب «الشخصيات المناهضة للإقطاع»، الصاعدة، في جنين، وطولكرم، وقلقيلية (أي في عموم المنطقة)، ضد نفوذ آل طوقان وآل النمر. وقد حشدوا قواهم ضد لجنة الاتحاد والترقي في فلسطين، التي كانت تعتمد، حسب دروزة، على دعم ضباط الجيش وكوادر الجهاز الإداري المدني العثماني.[29]

واستندت قوة الجمعية الحمّادية، «الحزب البورجوازي»، كما أسماها دروزة، إلى قيادة توفيق حمّاد وكفاءاته التنظيمية في جمع شبكة واسعة من المصالح التجارية ضد الحرس القديم (آل طوقان وحلفائهم). بحيث تمكّنوا من النجاح في المنافسة على جمع ضريبة الأعشار، التي أصبحت الآن تُجبى عبر المزاد العلني، بعد حلّ نظام الالتزام الضريبي، أو – بشكلٍ أكثر دقّةً – بعدما غدا نظام الالتزام في غير أيدي ملاّكي الأراضي الإقطاعيين.[30] وكان موقفهم الأيديولوجي داعمًا بقوة للسلطان عبد الحميد وللانقلاب المضاد في العام 1909 الذي هدف الى إعادة الخلافة، والذي لم يعمّر طويلًا. ولاحقًا انضمّ معظم أعضائهم إلى حزب اللامركزية العثماني.[31] وكان أمرًا شاذًّا في هذا التحليل الطبقي للعمل السياسي النابلسي ذلك التحالف بين «الجمعية» وآل عبد الهادي في جنين - برئاسة سعيد باشا وحافظ باشا عبد الهادي –، وهي العائلة الإقطاعية التي يعتبرها بعضهم صاحبة مُلكيات الأراضي الأوسع. وقد وصف دروزة تلك الظاهرة الشاذة بـ «المُفارقة». كما اعتبر أن التحالف كان أداة قوةٍ

فـي أيـدي «الجمعيـة»، وإن كان قـد خلّـف بعـض المشـاكل – ذلـك أنّ آل عبـد الهـادي كانـوا رأس حربـة القـوى الإقطاعيـة. سـعيد وحافـظ (عبـد الهـادي) كانـا الشـخصيتين الأوسـع نفـوذًا فـي منطقـة جنيـن... ومـا هـو أكثـر إثـارةً للاسـتغراب أنّ العائلـة لـم تعتـرض علـى أن تصبـح حجـر الزاويـة فـي الحـزب المناهـض للإقطـاع. وكان نفوذهـم ومكانتهـم راسـخَين حـدَّ أنهـم لـم يعترضـوا علـى الصفقـة. وقـد رأوا فـي تحالفهـم مـع «الجمعيـة» ذات القاعـدة النابلسـية أداةً فـي صراعاتهـم الفئويـة الخاصـة مـع القـوى الإقطاعيـة الأخـرى فـي المنطقـة. ويبـدو لـي أن سـليم الأحمـد (ابـن أخيهـم) كان لـه دورٌ أساسـيٌ فـي معالجـة هـذه التناقضـات وتأميـن صياغـاتٍ فكريـة لانخـراط آل عبـد الهـادي فـي الحملـة المناهضـة للإقطـاع.[32]

ويبـدو تفسـير دروزة هنـا حاذقًـا وعميقًـا. ففيمـا اعتمـد إطـارَ تحليـلٍ ماديًّـا وماركسـيًّا، يعانـي تحليلـه، رغـم ذلـك، مـن قـدرٍ مـا مـن الاختـزال، مـن خـلال إسـقاط الفئـات الطبقيـة فـي خانـات قـوىً سياسـية، خصوصًـا فـي محاولتـه تفسـير الطابـع الشـاذ لحضـور مصالـح عائلـة إقطاعيـة فـي حـزب البورجوازيـة النابلسـية. وأحـد أسـباب هـذه المفارقـة المفترضـة يكمـن فـي إخفـاق دروزة فـي رؤيـة حقيقـة أنّ قطاعـاتٍ واسـعة مـن نُخـب ملّاكـي الأراضـي الفلسـطينية انخرطـت منـذ وقـتٍ مبكّـر فـي التجـارة، و«تبرجـزت» مـن خـلال اسـتثمار نسـبةٍ عاليـة مـن ريـع الأرض فـي الصناعـة (الصابـون، زيـت السمسـم، القطـن)، منشـئةً مصـادر جديـدةً للثـروة وآفاقًـا مهنيـةً جديـدة لأفـراد عائلاتهـم. ويبقـى التحليـل العـام، رغـم ذلـك، بارعًـا ويضفـي مصداقيـةً علـى طبيعـة الصراعـات السياسـية فـي نابلـس، التـي حشـرها إحسـان النمـر تحـت يافطـة خانتـي «الحميديـة/ معـاداة الحميديـة».

إعادة سرد المهزلة – ثورة المشايخ

فـي سـردية دروزة عـن «الثـورة»، التـي صوّرهـا النمـر بعبـاراتٍ مُحقِّـرة، شـكّلت محاولـة إعـادة نظـام الاسـتبداد الحميـدي تلـك «اللحظـة المهزلـة»، وليسـت «الثـورة». وكان عـزة دروزة عُيّـن، فـي حزيران/يونيـو 1907، موظفًـا فـي مكتـب بريـد نابلـس، مسـؤولًا عـن البرقيـات (وهـي وظيفـةٌ حسّاسـة تتطلّـب إجـازةً أمنيـة)، براتـبٍ شـهريٍّ يصـل الـى 300 قـرش. وكان علـى والـده أن يدفـع 30 جنيهًـا عثمانيًّـا (وهـي رشـوةٌ أسـماها، لتخفيـف الوقـع، «مـا فيـه النصيـب») لأولئـك المسـؤولين عـن إدارة البريـد لتأميـن التعييـن.[33] وبقـي دروزة فـي وظيفتـه هـذه

حتـى العـام 1914 عندمـا تـمّ ترفيعـه الـى نائـب مدير، بحيث شـهد الأحـداث البـارزة التـي جرفـت نابلـس أثنـاء «الثـورة». وإحـدى مهماتـه فـي عملـه كانـت اعتـراض الصحـف والمنشـورات المحظـورة، التـي كانـت تُرسَـل الـى المشـتركين فـي المدينـة، ومصادرتهـا. وكانـت قائمـة المنشـورات الخاضعـة للحظـر تُـوزَّع بوتيـرةٍ أسـبوعية.[34] وهـذا مـا أعطـى دروزة الفرصـة لقـراءة وتعميـم مـواد معارضـة مرسَـلة مـن القاهـرة وأوروبـا، وكذلـك نشـرياتٍ عربيـة راديكاليـة كانـت ترسَـل مـن أميـركا.

وفـي 24 تموز/يوليـو 1908 (الـذي يسـجّله هـو كيـوم الرابـع مـن تمـوز 1324، وفـق التقويـم العثمانـي «المالـي»)، تلقّـى عـزة دروزة برقيـةً معمّمـة موجّهـة إلـى متصـرّف نابلـس تعلـن المرسـوم الإمبراطـوري للسـلطان عبـد الحميـد «الـذي يعيـد إحيـاء القانـون الأساسـي»، الدسـتور. وفـي خـلال الأيـام القليلـة التاليـة، تـمّ إغـراق «الشـارع النابلسـي»، وفـق تعبيـر دروزة، بمنشـورات لجنـة الإتحـاد والترقـي، ورايـات الحـزب الحُمـر والبيـض التـي تحمـل شـعاراته – حريـة، مسـاواة، أخـوة. وأصبـح نـادي لجنـة الاتحـاد والترقـي عنـد بوابـة نابلـس الشـرقية (الـذي عرّفـه النمـر بـ«نـادي القلـب»)، والواقـع فـي جـوار مكتـب البريـد، مركـزَ اجتـذابٍ للشـباب النابلسـي.[35] وكان دروزة انضـمّ الـى الحـزب فـي سـنّ التاسـعة عشـرة، ملتحقًـا بصديقـه ورفيقـه ابراهيـم القاسـم عبـد الهـادي:
إبراهيـم كان خطيبًـا مفوّهًـا. كان يخاطـب الجماهيـر المتجمّعـة فـي سـاحة السـراي باللهجـة النابلسـية، موضحًـا معنـى الدسـتور ومـا يترتـب عليـه فـي مجـال العـدل والأخـوّة، بالإضافـة الـى كونـه محطـةً مهمـة ضـد الفسـاد والمحسـوبية.[36]

وبقـي دروزة مقربًـا مـن ابراهيـم طـوال سـنوات الحـرب عندمـا أصبـح كلاهمـا عضويـن فـي «اتحـاد الوفـاق الحـرّ»، وحـزب اللامركزيـة. ويصـف دروزة فـي مـا يلـي أحـداث 31 آذار/مـارس 1909 – التـي يعنونهـا فـي مذكّراتـه «ثـورة المشـايخ» ضـد الدسـتور. ومـن الجديـر بالتذكيـر أن دروزة كان آنـذاك موظفًـا فـي مكتـب البريـد العثمانـي فـي بيـروت، وتـمّ نقلـه، بعـد فتـرة وجيـزة مـن ذلـك، الـى نابلـس.[37]

فـي 31 آذار 1325 (13 نيسـان/أبريل 1909)، أبلغـت سـلطات البريـد فـي العاصمـة (اسـطنبول) موظفيهـا فـي بيـروت وغيرهـا مـن المـدن بـأن مجموعـةً مـن المشـايخ بزعامـة درويـش وحداتـي قـادت حركـةً ضـد الدسـتور، ولجنـة الاتحـاد والترقـي،

وحكومتها. وتمكّن أفراد المجموعة من الحصول على دعم شرائح من الجمهور المتدين، كما ومن ضباطٍ في الجيش في الآستانة. وطالبوا بإلغاء الدستور، وحلّ البرلمان، وإقصاء لجنة الاتحاد والترقي «الملحدة»، وتطبيق قوانين الشريعة كدستورٍ للبلاد. وتمكّنوا من إقصاء وزراء ونواب عدة. وانتقل أعضاء لجنة الاتحاد والترقي الى السرية. واستجاب السلطان عبد الحميد، الذي كان يقف بشكلٍ واضح وراء الحركة، لكل طلباتهم، فألغى البرلمان والدستور.[38]

وكان درويش وحداتي ناشطًا قبرصيًّا، يقود «الجمعية المحمدية»، ويصدر صحيفةً إسلامية اسطنبولية، تحمل عنوان «فولكان».[39] وأقدمت الحركة (الانقلابية) على إزاحة عددٍ كبيرٍ من الحكّام في الأناضول وفي سورية واستبدالهم بموالين لعبد الحميد. وتمّ الإعلان عن احتفالاتٍ في أنحاء السلطنة للاحتفاء بإعادة حكم السلطان. وكانت حركة «الاسترجاع» في نابلس بقيادة الحاج توفيق حماد وأتباعه. وهم عقدوا عددًا من الاجتماعات الجماهيرية في أحياء المدينة وأرغموا السكان على أداء قَسَم الولاء للسلطان وللشريعة الإسلامية. «هم اتهموا الاتحاديين بالكفر والإلحاد، وبكونهم أعداء الخلافة».[40] وشارك كلٌّ من إحسان النمر وعزة دروزة في هذه الاجتماعات، الأول كمؤيد، والثاني كمراقبٍ نقدي. وذكر دروزة أن اجتماعاتٍ عدة شبيهة عُقدت في أنحاء فلسطين وسورية.[41]

وعندما قاد عمر محمود شوكت الجيش الروملّي ضد الثورة المضادة في اسطنبول، وخلعَ السلطان وأعاد البرلمان، بعثت لجنة الاتحاد والترقي نداءً الى فروعها في المناطق المختلفة لتنظيم مسيراتٍ نحو العاصمة دعمًا للثورة. وكان عشرة أشخاصٍ من نابلس، بحسب دروزة (خمسة فقط، بحسب النمر) طليعة المسيرة من فلسطين. وكان يقودهم اليوزباشي أمين، قائد حامية نابلس، وأحمد حلمي عبد الباقي (رئيس حكومة عموم فلسطين المستقبلية التي أنشأها لاحقًا الحاج أمين الحسيني، وأحد زعماء حزب الاستقلال)، وعبد الفتاح ملحس، وراغب شاهين (ص. 188). وعندما وصلوا دمشق، كانت «القوى الثورية» قد استعادت السلطة، فعاد وفد الدعم الى نابلس.

وبدأت الحكومة الجديدة عملية تصفية أتباع النظام الحميدي في فلسطين

وسورية. كما تمّ تعيين حكّامٍ جدد، واعتقال الحاج توفيق حماد وأتباعه ونفيهم الى بيروت. وتمّ تعيين بشير طوقان من قبل الحاكم التركي لنابلس، فتحي بك، كحاكمٍ جديد لمنطقة جنين مكلّفًا بتصفية نفوذ النظام الحميدي في المنطقة. واندفعت حكومة لجنة الاتحاد والترقي في حملةٍ واسعة لضمان نجاح أنصارها في البرلمان الجديد. وفي ما يخصّ نابلس، أعاد هذا التطور نفوذ عائلة طوقان – حيث حلّ حيدر طوقان مكان ابن عمه المتوفى بشير طوقان (ص. 188 – 189). وفي هذه العملية، استخدمت لجنة الاتحاد والترقي قدرًا كبيرًا من «تزوير الأصوات والترهيب»، حسب دروزة، حيث بقيت المعارضة تحتفظ بشعبيةٍ بين السكان.

ويرى دروزة أن الصراع في نابلس، وفي فلسطين بشكلٍ عام، كان بين جناحَي النخبة المحلية، حيث اعتمدت «حركة الاسترجاع» على العناصر التجارية الجديدة (الحاج حماد وحزبه)، بينما تشكّلت قيادات الحركة الدستورية المناهضة لعبد الحميد من العناصر الاقطاعية القديمة (آل طوقان وأتباعهم). وهو ما شكّل عاملًا أساسيًّا في تحوّل المعارضة الجذرية للنظام القديم لتصبح ضد كلا الجناحين وتذهب في اتجاهٍ قومي، داعمةً حزب اللامركزية، ولاحقًا حزب الاستقلال (الوطني) – الذي سيصبح دروزة أحد أعضائه القياديين.

ثورة دروزة هي «المهزلة» عند النمر

اعتبر إحسان النمر أن انهيار النظام العثماني تعود جذوره الى محاولة النظام إنجاز تحديثٍ سيّئ الإعداد، وهو تحديثٌ انتهى الى تراجعٍ في الاستقلال الذاتي لإدارات المقاطعات، ليس فقط في نابلس، وإنما في المقاطعات السورية ككلّ. ويرسم النمر، بوضوحٍ، التوقيتات الزمنية لهذا الانهيار في كتابه الضخم حول تاريخ البلقاء وجبل نابلس، ولكنه يرى أن إلغاء السيطرة اللامركزية من قبل شيوخ النواحي، والتي تُرجمت في هيمنة عائلات النمر وعبد الهادي وطوقان، فتح المجال أمام استدراج التزامٍ ضريبيٍّ تنافسيٍّ من قبل قوًى اجتماعية جديدة كانت تسعى إلى الإثراء الخاص من خلال نظام الالتزام الضريبي، وهي قوًى لم تكن لديها أيّ مشاعر تعاطف تجاه الفلاحين المحليين وأوضاعهم. وهو يسجّل أنّ حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري (الثلث الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي)، كانت الضرائب الريفية لا تزال تُجبى من قبل ملاّكين

إقطاعيين محليين ومن قبل «السيباهيين». وهؤلاء الملاّكون حافظوا على صلاتٍ اجتماعية مع الفلاحين وحرصوا على أن تكون عائلاتهم مشاركةً في الإنتاج وتعيش بمستوى أفضل من مجرد توفير المقومات الأولية للعيش (المجلد الثالث: ص. 49). وهذه الوضعية تعرّضت للتدمير من قبل دولة «التنظيمات» في سعيها المحموم إلى تحقيق عائداتٍ أكبر، وفي مأسسة الالتزام الضريبي في صورة استدراجٍ تنافسيٍّ مفتوح.

مع انحسار دور أمراء جبل نابلس وشيوخه الإقطاعيين، دخل الساحة جيلٌ جديدٌ من رجال الأعمال (التجاريين)، وأصبح الالتزام عملية استدراج عروض. وبدأت العائلات حديثة الثراء تحلّ محل بيوت الحكم في مزادات الالتزام. وتدريجيًّا حلّ الإقطاع المالي محلّ الإقطاع المُلكي وهو ما كانت له عواقب كبيرة. ذلك أن هؤلاء الأسياد الجدد كانوا يفتقدون للسيطرة التوافقية (على الفلاحين)، وبدأوا باستخدام سياط الدرك وعناصر الشرطة لتنفيذ الجباية.[42]

ويورد النمر قوائم من أساليب الإثراء من قبل ملتزمي الضرائب ومن إضافاتٍ لضرائب جديدة (ضريبة «ويركو»، والضريبة على رأس الحيوان، وضريبة الدخل الفردي)، وهي إجراءاتٌ قادت الى إفقار فلاحي نابلس. وهكذا بات الدرك الآن يطبّقون بالقوة ليس فقط جباية العُشر، ولكن أيضًا جباية الديون نيابةً عن تجار المدينة والمُقرضين – ما أدّى الى فرض عمل السُّخرة في حال عدم التسديد، ونتج من ذلك أيضًا فسادٌ واسع. وهو يستشهد بعميد سادة آل النمر، ابن عمه محمود آغا النمر، حين يسجّل: «ما دمّر الدولة العثمانية كان الدرك وتجاوزاتهم المالية القاسية».[43]

وهكذا يرسم النمر صورةً مثالية للنظام الإقطاعي القديم، ويتحسّر على سقوطه، كما جسّده سقوط عائلته الخاصة هو، آل الآغا، وحلفائهم، وإن كان تحسُّره يستند أيضًا الى حسٍّ عميقٍ بالخسارة والمعاناة اللتين لحقتا بالفلاحين وفقراء المدينة. وهو يستشهد بشكاوى الفلاحين الواردة في تقريرٍ رسميٍّ أعدّه زميله النابلسي رفيق التميمي، مؤلّف «ولاية بيروت» (بيروت ولايتي)، حول الفارق بين مرحلة حكم لجنة الاتحاد والترقي والنظام الحميدي: «الدرك الدستوري أسوأ بآلاف المرات من جهاز شرطة العهد الاستبدادي (الحميدي).

ذلك أن الشرطة القديمة كانت تتشكّل من أفرادٍ من العشائر المجاورة، التي كانت معروفةً بحسن الأخلاق والسلوك».[44] ويضيف النمر: «وكان قائدهم (الاسمي) عثمان بك من خارج المنطقة، بينما كان القائد الفعلي هو نائبه عبد الكريم آغا النمر، الذي كان من أبناء المنطقة وعلى درايةٍ بالتقاليد المحلية والأوضاع الاقتصادية للناس».[45] أما في العهد الجديد، فتحوّل جهاز الشرطة نحو ممارسة الرشوة والنهب على نطاقٍ واسع لتحسين دخل أفراده.[46] وأخذ الحاكم المحلي يجنّد «العصاة ورجال العصابات» في قوة الدرك، بحجة أنّ ذلك وسيلةٌ لتدجين قطاع الطرق. ورجال الدرك أقدموا بدورهم على ممارسة أساليب وحشيةٍ لتنفيذ القانون، ما دفع الناس بعيدًا من النظام الجديد، وقوّض شرعية الدولة العثمانية بمجملها.

وهكذا، يعزو النمر ابتعاد الناس من الدولة العثمانية إلى إجراءاتٍ إدارية اتُخذت في خلال المرحلة الدستورية، ولا يحصر المسؤولية بالتحديد في نظام جمال باشا واقتصاد الحرب، كما فعل دروزة وآخرون. وقد تفاقمت هذه الإجراءات خلال الحرب وبرزت مشاعر نفورٍ من إجراءات «التتريك» والمشاعر المعادية للعرب المنبعثة من العاصمة الإمبراطورية.[47] ومع ذلك، بقي الجمهور النابلسي، بشكلٍ عام، وفق سردية النمر، وفيًّا للعثمانيين، رغم الإجراءات القمعية التي اتّخذها جمال باشا ومساعدوه. وبقيت الحال كذلك حتى بعد سقوط القدس وجنوب فلسطين في أيدي البريطانيين. بحيث أصبحت نابلس مقرًّا جديدًا للقيادة العسكرية المركزية العثمانية، بدعمٍ من القوات الجوية الألمانية آنذاك.

ويصف النمر اجتماعاتٍ عدة في المدينة دعا إليها القائد فوزي باشا لإعادة تجميع الجيش المنسحب والتحضير للدفاع عن الجزء الباقي من سورية الجنوبية. ويشير النمر الى سببٍ رئيسيٍّ لتجدّد الدعم الشعبي للجيش، تمثَّل في كشف خطط الحلفاء في المنطقة، بما في ذلك وعد بلفور واتفاقات سايكس/بيكو.[48] وهكذا، تشكّلت كتيبةٌ جديدة باسم كتيبة صلاح الدين لتضمَّ مئاتٍ عدة من الفارّين من الخدمة العسكرية، ناهيك عن عددٍ من المجنّدين المحليين الجدد. وتمّ تلقين تلاميذ المدارس لإنشاد «الأتراك والعرب هم أخوة – ولديهم وطن مشترك» باللغة التركية (توركلر وأرابلر كاردشتير – بايلاشيلان بير وطن وار). وأخّر

هذا الوضع الجديد، حسب النمر، وحتى قَلَبَ نزوع القوى القومية المناهضة للعثمانيين، «لأن الناس أدركوا الخطر الوشيك، وأن الحكم التركي أكثر مقبوليةً من مخططات الحلفاء».[49] وفي كانون الأول/ديسمبر 1917، كتب النمر بشكلٍ صريح أن الثورة العربية للشريف حسين وحلفائه القوميين في سورية لم يكن لديها دعمٌ يُذكر في نابلس.[50] لكن هذا النهوض المتجدد للمشاعر العثمانية لم يعمّر طويلًا. فمع انهيار الجبهة البلغارية، أُعطيت الأوامر لانسحاب القوات العثمانية من سورية وفلسطين.

ويؤكّد مؤرّخون كثيرون، بمن في ذلك عزة دروزة، صحة التقدير بأن الثورة العربية لم يكن لها دعمٌ ذو شأن في نابلس وأجزاء أخرى من فلسطين. وذلك يساهم في فهمنا الوضع الاستثنائي لنابلس، والذي ميّزها عن يافا والقدس، ويفسّر كيف تمكّن الجيش العثماني من الاحتفاظ بموطئ قدمٍ له في شمالي فلسطين لأكثر من عامٍ بعد سقوط الجبهة الجنوبية.

استخلاص: التاريخ المحلي وقضية الاستثنائية

تناولنا هنا روايتَي مؤرخَين محليّين من نابلس، إحسان النمر ومحمد عزة دروزة، وتعاملهما مع الأحداث التي واكبت الثورة الدستورية للعام 1908، وصولًا الى الحرب العالمية الأولى ثم انهيار السلطنة العثمانية. وتكمن أهمية التاريخ المحلي هنا في الكشف عن مساراتٍ تفسّر الصورة الكبيرة لما كان يحدث في المقاطعات السورية، على المستوَيين الإقليمي والإجمالي. كما تُلقي الضوء على وجود سماتٍ استثنائية وتلاوين في مواقف القوى المحلية والإقليمية، ما يسحب البساط من تحت أقدام ما أصبح لاحقًا الرواية القومية العربية المهيمنة.

وتطرح فكرة «الاستثنائية» مسألةً نظريةً مهمّة في تدوين تاريخ مدنٍ بمفردها. وهذه موضوعةٌ تتكرّر في كتابة التواريخ المحلية. فهذه الكتابات الأخيرة تلقي ضوءًا كاشفًا على السمات الخاصة لهوياتٍ محلية ملموسة، وتبرز حدود درجة اندماج التنظيم الاجتماعي المحلي في شبكة العلاقات القومية والكونية. والسؤال هنا هو: بأيّ قدرٍ يصبح التركيز على الملامح الاجتماعية ذات الخصوصية للمشهد المديني -التي هي أداةٌ ضرورية في فحص الإثنوغرافيا المدينية- ، دفعًا نحو تأكيد الطابع الاستثنائي والمنفرد للظاهرة؟

وفـي حالـة نابلـس، تبـرز روايتـا النمـر ودروزة - رغـم اختيارهمـا مقاربـاتٍ متباينـة جذريًّـا - الطابـع الاسـتثنائي لجبـل نابلـس ولقـواه الحاكمـة بمعاييـر الاسـتقلالية الذاتيـة للمدينـة (النمـر) والتشـكيلات الطبقيـة الخاصـة فـي أواخـر القـرن التاسـع عشـر (دروزة). ويثيـر دروزة القضيـة الغريبـة لكيفيـة اتخـاذ شـرائح مـن الطبقـات الإقطاعيـة القديمـة قـرار الوقـوف الـى جانـب «الثـورة»، بينمـا «الحـزب البورجـوازي» يتّخذ موقـف دعـم الاسـترجاع الحميـدي. وفـي تحليـل النمـر، ترتبـط «اسـتثنائيته» بنظرتـه الـى تطويـر الاسـتقلالية الذاتيـة لنابلـس فـي إطـار الجهـاز الإداري العثمانـي، وقدرتهـا علـى إدامـة هيمنـةٍ طويلـة الأمـد لعائلاتهـا الأرسـتقراطية علـى المناطـق الريفيـة، وقـدرة نُخبـة المدينـة علـى تحويـل الريـع الزراعـي الـى ثـروةٍ تجاريـة وصناعيـة، ومقاومـة محـاولات السـلطة المركزيـة البيروقراطيـة لاسـطنبول للتدخّـل فـي الشـؤون المحليـة. وذلـك صحيـحٌ أيضًـا بالنسـبة إلـى مراكـز إقليميـة سـورية عـدة، بمـا فـي ذلـك دمشـق وحلـب، مـن زوايـا عـدة، ولكـن أكثـر مـن ذلـك بالنسـبة إلـى نابلـس.

وتشـدّد روايتـا دروزة والنمـر علـى اعتبـار تحـدي المجلـس المحلي للمدينـة وعائلاتها المسـيطرة مسـألةً ذات أهميـةٍ قصـوى. وهـذه التركيبـة الخاصـة للسـلطة المدينيـة سـمحت، ليـس فقـط بامتصـاص الفائـض الريفـي بشـكلٍ فعـال، بـل أيضًـا بالتوسـط فـي العلاقـة بيـن الفلاحيـن والمُـلاّك المدينييـن فـي الدفـاع عـن البـلاد العثمانيـة. فقـد تمكّنـت نابلـس مـن الاحتفـاظ بنصيـبٍ مـن الريـع الريفـي أكبـر بقـدرٍ ملمـوس مـن غيرهـا مـن المقاطعـات الأخـرى فـي فلسـطين، مـا سـمح بنمـوٍ ملحـوظٍ فـي ناتجهـا التجـاري والصناعـي، بالتـوازي مـع اندماجهـا بشـكلٍ فعّـال فـي الإصلاحـات الماليـة لعهـد مـا بعـد «التنظيمـات».

ولـم يكـن نقـل القيـادة المركزيـة العثمانيـة فـي جنـوب سـورية مـن القـدس الـى نابلـس، بعـد سـقوط يافـا والقـدس وبئـر السـبع فـي كانـون الأول/ديسـمبر 1917 فـي أيـدي قـوات الحلفـاء فـي الحـرب العالميـة الأولـى، صدفـةً جغرافيـة. ويفسّـر النمـر ودروزة كيـف ولمـاذا بقيـت نابلـس مواليـةً للسـلطنة حتـى فـي أوج ديكتاتوريـة جمـال باشـا – وهـو ولاءٌ كان لـه فـي آنٍ واحـد طابـعٌ أيديولوجـيّ وعسـكري. وسـمح للعثمانييـن بالاحتفـاظ بسـيطرتهم علـى شـمال فلسـطين وجنـوب سـورية لسـنةٍ كاملـةٍ تقريبًـا، حتـى تشـرين الثانـي/نوفمبـر 1918.

تناولنا في هذه المقالة ثلاث سردياتٍ للثورة والثورة المضادة في 1908 – 1909 من قبل كُتّابٍ اعتبروا نابلس مدينتَهم. اثنان منهم من أبنائها الأصليين، والثالث أمضى سنواته التكوينية في المدينة. النمر ودروزة هما سليلا عائلاتٍ من صُلب المدينة. أما روحي ياسين الخالدي، العضو المندمج تمامًا في البيروقراطية الإمبراطورية، فأتى من عائلةٍ مقدسية بارزة تُعيد أصولَها - من خلال بعض الروايات - الى مردا في منطقة نابلس، وهو أنهى تعليمه الابتدائي في مدرسة مكتب رشدي في نابلس. جرى ذلك في خلال ولاية مدحت باشا، الحاكم التقدمي لسورية، الذي عيّن والد روحي، ياسين الخالدي، قاضيًا في محكمة نابلس.[51] أما النمر، فكان ينتمي إلى العائلة الإقطاعية الأبرز في المدينة – آل الآغا – التي أخذت هيمنتها تتراجع نتيجة الإصلاحات الاقتصادية العثمانية. في حين انتمى دروزة، الذي كان موظفًا مدنيًّا صغيرًا في سلطة البريد، الى شرائح مهنية وتجارية استفادت بشكلٍ واسع من النظام التعليمي الجديد ومن إصلاحاته.

وتُلقي الأصول الاجتماعية والتصنيف الطبقي لهؤلاء الكُتّاب الثلاثة (بالترتيب، البيروقراطية الإمبراطورية، نُخبة ملاّكي الأرض، والبورجوازية الصغيرة المهنية) ضوءًا مهمًّا على قراءة كلٍّ منهم للثورة الدستورية. ولكن تشخيصهم للأحداث لا يمكن تفسيره، وبالأحرى استنتاجه، من انتمائهم الطبقي. فـ«انقلاب» الخالدي يوفّر إحاطةً واسعة وتاريخية لأسباب الثورة العثمانية، تتّسم بالطوباوية والوضعية في آنٍ واحد. فالثورة الدستورية الثانية، من وجهة نظره، حقّقت، أو بالأحرى حاولت أن تحقّق، للبلاد العثمانية ما حقّقته الثورة الفرنسية لفرنسا: هي أدخلت الحداثة من خلال إطاحة الإقطاع والاستبداد المطلق في ثوبٍ إسلاميٍّ إصلاحي. وأتاح الإصلاح الإسلامي للعثمانيين، برأيه، تفادي العنف الطبقي للثورة الفرنسية. وكان منظوره منظورًا يرى أقاليم السلطنة ككلّ، وكانت فلسطين نقطةً هامشيةً في هذا التصوّر. وقد حال بُعده عن المنطقة في زمن الكتابة (كان آنذاك قنصلًا عثمانيًّا في مدينة بوردو الفرنسية)، ووفاته المبكّرة عام 1913، بينه وبين معالجة التغيّرات التي جرّتها الثورة على المستوى المحلي.

ويوفّر النمر ودروزة ترياقًا «تصحيحيًّا» لفهم الخالدي التجريدي والتحليلي للحركة الدستورية، كونهما كانا شاهدين على تلاحق أحداث «الثورة»،

و«الثـورة المضـادة»، فـي الميـدان. وبالنسـبة إلـى كلا الراويَيـن، شـكّل التاريـخ المحلـي نافـذةً لفهـم العوامـل الأكبـر التـي كانـت تُحـدِث تغيّـراتٍ فـي فلسـطين وسـورية فـي السـنوات الأخيـرة للسـلطنة. وهـذا التاريـخ سـعى الـى تفحُّـص المكانـة الاسـتثنائية لجبـل نابلـس، وفـي الوقـت ذاتـه تظهيـر عوامـل تلاشـي النظـام القديـم.

وأتـاح التركيـز علـى الممارسـة السياسـية للنخـب الحاكمـة فـي نابلـس لـكلٍّ مـن دروزة، والنمـر (بدرجـةٍ أقـل)، تجـاوز مزالـق النزعـة المحليـة فـي كتابـة «التاريـخ المحلـي»، بمعنـى عـزل البنيـة الاجتماعيـة للمدينـة عـن الاقتصـاد السياسـي لمحيطها الإقليمـي. وهـذا مـا أمكـن تلمُّسـه فـي عـددٍ مـن الإحـالات علـى ارتباطـات المدينـة الخارجيـة:

- أطلـق المقدسـي فـي القـرن العاشـر علـى نابلـس تسـمية «دمشـق الصغيـرة»، وهـو تعبيـرٌ بقـي يسـتخدم حتـى يومنـا، جزئيًّـا بسـبب تبعيـة المدينـة إداريًّـا، فـي خـلال معظـم العصـر العثمانـي، لولايـة دمشـق، وليـس لمتصرّفيـة القـدس. واسـتمرّت التجـارة والبنـاء المعمـاري ونـوع المأكـولات وروابـط الـزواج ضمـن العائـلات الأرسـتقراطية تظهّـر هـذه الصلـة الدمشـقية.
- ويسـجّل كلٌّ مـن دروزة والنمـر غيـاب سياسـاتٍ قوميـةٍ عربيـة (خلافًـا للوعـي الثقافـي العروبـي) فـي الأصـداع الرئيسـية لسياسـات المدينـة. فالسياسـات الداعيـة الـى فصـل سـورية كانـت إمـا هامشـية (دروزة) وإمـا غائبـة (النمـر). وسـجّل النمـر بشـكلٍ خـاص أنّ فـي خـلال فتـرة الحـرب (1914 – 1918) لـم يكـن هنـاك أتبـاعٌ للثـورة العربيـة ولا للحركـة الفيصليـة، كمـا أشـرنا أعـلاه. فكلّ الحـركات السياسـية، العلنيـة والسـرية، كانـت تيـاراتٍ عثمانيـة، مثـل لجنـة الاتحـاد والترقـي، والوفـاق الحـر، وحـزب اللامركزيـة – باسـتثناء التأثيـرات الوهابيـة.

- كانـت النُخبـة النابلسـية مندمجـةً بشـكلٍ جيـد في النظـام البيروقراطي السـلطاني العثمانـي، مـن خـلال تعيينـات المسـؤولين الإداريـين المحليـين، ونـواب مجلـس المبعوثـان، وسـلك القضـاة، بالإضافـة الـى التعيينـات فـي الخدمـة المدنيـة (الـدرك، البلديـات، المـدارس)، حيـث كانـت أغلبيـة المعينيـن مـن السـكّان المحليين. واسـتمرّ التوتـر مـع اسـطنبول يجيـش تحـت السـطح حـول اختيـار توزيـع الالتزامـات الضريبيـة وتخصيـص حصـص الضرائـب. ويشـير النمـر

الـى مصـدرٍ آخـر للخـلاف: اسـتخدام الـدرك العثمانـي فـي الجبايـة القسـرية للضرائـب. وكان عناصـر الـدرك يُجنَّـدون، فـي أواخـر القـرن التاسـع عشـر، بشـكلٍ متزايـد، مـن القـوى القبلية/العشـائرية فـي منطقـة البلقـاء.

ولكـن روايتـي النمـر ودروزة تفترقـان بطريقـةٍ جوهريـة جـدًّا. فتقييـم النمـر لـ«مهزلـة» لـ1908 – 1909 – أي المحاولـة الناجحـة لإطاحـة النظـام الحميـدي، والمحاولـة الفاشـلة لاسـترجاع السـلطنة، كان اسـتعارةً. حيـث كان المقصـود تظهيـر فشـل انقـلاب لجنـة الاتحـاد والترقـي، رغـم نجاحـه الظاهـري، لاختـراق علاقـات السـلطة فـي المقاطعـات العربيـة، وفـي نابلـس بشـكلٍ خـاص. وهـو فشـلٌ رأى أن صحتـه ثبتـت عبـر إزاحـة الاتحاديين مـن السـلطة فـي العـام 1912. وبالنسـبة إليـه، كانـت القوميـة العربيـة والفلسـطينية قـوًى «رجعيـة» سـاعدت الاسـتعمار البريطانـي والفرنسـي فـي السـيطرة علـى سـورية، ومهّـدت الطريـق للصهيونيـة ولفصـل فلسـطين عـن السـلطنة – حيـث كانـت السـلطنة فـي نظـره الضامـن الوحيـد لبقائهـا. وتأثّـرت رؤيـة النمـر الكونيـة، بقـوة، بعواطفـه الوهابيـة، حيـث بـرز كمعـارضٍ منهجـيٍّ للنزعـة القوميـة، وكمـؤرخٍ إسـلاميٍّ وعثمانـيّ النزعـة.

فـي المقابـل، رأى دروزة فـي تنـازع القوة بيـن الاتحاديين والقوى الحميديـة صراعًا حقيقيًّـا، تجلّـى فـي نابلـس كمواجهـةٍ اجتماعيـة وسياسـية بيـن العائلات الأرسـتقراطية الإقطاعيـة القديمـة وطبقـة التجـار وأصحـاب الدكاكيـن. ويتميّـز تحليلـه لأحـداث 1908 – 1909 فـي تركيـزه علـى صعـود القـوى المناهضـة للإقطـاع فـي الممارسـة السياسـية النابلسـية ودور مـا أسـماه «الحـزب البورجـوازي» للحـاج توفيـق حمّـاد. ومـا رأى فيـه النمـر صراعًـا بيـن القـوى الحميديـة وتلـك المناهضـة للحميديـة مـن أجـل إنقـاذ الأراضـي الإسـلامية، قيَّمـه دروزة بحـق كصـراعٍ بيـن جناحيـن مـن النُخبـة المحليـة. وهـو انزعـج مـن فوضـى الممارسـة السياسـية الطبقيـة المحليـة، التـي اعتبرهـا ظاهـرةً شـاذة، بسـبب وجـود قـوى ذات شـأن مـن ملاّكـي الأرض (آل عبـد الهـادي – الذيـن رأى فيهـم «الأكثـر إقطاعيـةً» بيـن القـوى الإقطاعيـة) فـي طليعـة «الحـزب البورجـوازي». وهـؤلاء كانـوا أسـلاف رجـال الأعمـال مـن أمثـال آل المصـري وآل الشـكعة، الذيـن مـا زالـوا يسـيطرون علـى الحيـاة السياسـية والاقتصاديـة النابلسـية حتـى يومنـا هـذا.
ومـا أغفلـه ربمـا كان الطريقـة التـي انخـرط فيهـا أصحـاب المصالـح المرتبطـة

بالأراضـــي فــي الاســتثمارات الصناعيــة والتجاريــة، فــي وقـتٍ كان ريـع الأرض يتراجـع كمصــدرٍ رئيســيٍّ للثــروة وللمكانــة الاعتباريــة. وكان انتصــار القــوى التحديثيـة للثـورة العثمانيـة، التـي دعمهـا دروزة بحمـاس كناشـطٍ فـي لجنـة الاتحـاد والترقـي، ولاحقًـا فـي حـزب الوفـاق (الاتحـاد الحـر)، بالنسـبة إليـه، أشـبه بانتصـار «بيروسـي» (انتصـارٌ أسـوأ مـن الهزيمـة!)، نتـج منـه اللجـوء الـى سياسـات التتريـك وتشـديد القبضـة المركزيـة. وخلافًـا للنمـر، رفـض عـزة دروزة ربـط نفسـه بالنظـام الحميـدي، أو بخصومـه المحليـين فـي نابلـس وفلسـطين. ومـع اسـتمرار الحـرب، تخلّـى بسـرعةٍ عـن حماسـه لصالـح الاتحاديـين، وحـزب الاتحـاد الحـر، وتخلّـى عـن كلّ أمـلٍ فـي اسـتمرارية الوجـود العثمانـي، بالانضمـام الـى الحركـة الفيصليـة مـن أجـل اسـتقلال سـورية وفلسـطين.

ترجمة وائل زيدان

الهوامش:

(1)- سجّل عارف حجاوي الكاتب النابلسي الساخر تأملاته في وضعية نابلس "الثورية": "خلال ثورة 1936، أُطلقت على نابلس تسمية "جبل النار"، رغم أنها ليست نارية. فهي، بالأحرى، طفلٌ وديعٌ ينام على ثديي أمه. ويعتبر بعض الأنثروبولوجيين أن سكان الجبال يتّسمون بطباعٍ قاسية وخشنة خلافًا لسكان الوديان المسالمين وذوي المراس السهل. ولكن سلوك أهل نابلس كان دائمًا ودودًا. ففي العام 1936، ريف نابلس هو الذي كان شديد المراس، فيما اكتفت المدينة بنزع الطربوش واعتمار الكوفية لخداع القوات البريطانية وتحويل أنظارها عن تحركات الثوريين"- عارف حجاوي، "نابلس: مدينة النساء القويات"، This Week in Palestine, Issue 107, March 2007

(2)- زيادة، خالد. مقدمة لكتاب محمد روحي الخالدي، 2011. أسباب الإنقلاب العثماني وتركيا الفتاة. عابدين، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ص. 1 – 28.

(3)- الخالدي، محمد روحي، وخالد زيادة. 2011. أسباب الإنقلاب العثماني وتركيا الفتاة. عابدين، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ص. 134.

(4)- مناع، عادل. 1999. تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني 1700 – 1918: قراءة جديدة. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ص. 242 – 243. (للتدقيق في تاريخ 1700، ربما المقصود 1800 – المترجم).

(5)- زياد، نعيمة. 2012. إحسان النمر. دائرة المعارف الفلسطينية، http://ency.najah.edu/node/23 accessed September 2, 2014

(6)- زياد، إحسان النمر، المصدر ذاته.

(7)- زياد، المصدر ذاته.

(8)- عودات، يعقوب. 1987. من أعلام الفكر والأدب في فلسطين. عمان: وكالة التوزيع الأردنية، ص. 637.

(9)- عودات، ص. 636.

(10)- النمر، إحسان. 1938. تاريخ جبل نابلس والبلقاء. نابلس: مطبعة جمعية عمال المطابع التعاونية، الجزء 3، ص. 95.

(11)- النمر، ص. 95.

(12)- دوماني، بشارة. 1998. إعادة اكتشاف فلسطين: أهالي جبل نابلس 1700 – 1900. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ص. 57 – 65.

(13)- إحسان النمر يستخدم تعبير "الحركة الرجعية"، وهي الصفة التي اكتسبت معنى محدّدًا في ستينيّات القرن العشرين – ولكن بما أن العمل المعني نُشر في العام 1938، فإن التعبير يشير هنا الى عملية الاسترجاع، بالمعنى الحرفي لكلمة "استرجاع"، كما في سياق كتاباته التحليلية، في آنٍ واحد.
(14)- أنشئت الجمعية من قبل كامل باشا، الوزير الأكبر، من أجل تجنيد الدعم الإسلامي لاسترجاع العرش.
(15)- النمر، "تاريخ..."، الجزء الثالث، ص. 107.
(16)- النمر، "تاريخ..."، الجزء الثالث، ص. 108.
(17)- النمر، "تاريخ..."، الجزء الثالث، ص. 109. لم أتمكن من إيجاد تأكيدٍ من جهة مستقلة لعدد الكتائب الأربع المستخدمة لإخماد التمرد.
(18)- النمر، "تاريخ..."، الجزء الثالث، ص. 110.
(19)- النمر، "تاريخ..."، الجزء الثاني، ص. 520 – 533.
(20)- النمر، "تاريخ..."، الجزء الثاني، ص. 497 – 506.
(21)- النمر، "تاريخ..."، الجزء الثاني، ص. 507 – 516.
(22)- النمر، "تاريخ..."، الجزء الثاني، ص. 520 – 549.
(23)- النمر، "تاريخ..."، الجزء الثاني، ص. 288 – 292.
(24)- دوماني، بشارة. 1995. إعادة إكتشاف فلسطين – تجار وفلاحون في جبل نابلس 1700 – 1900. Doumani, Beshara. 1995. Rediscovering Palestine merchants and peasants in Jabal Nablus, 1700-1900. Berkeley, Calif: University of California Press. Pages 111-114; 177-78; 241-242.
(25)- دوماني، المصدر ذاته، ص. 241.
(26)- النمر، "تاريخ..."، الجزء الثاني، ص. 540 – 548، ودوماني، ص. 241 – 242.
(27)- انظر إحسان النمر، "تاريخ..."، الجزء الثاني، الفصل السادس: "ثمار الحكم الوطني، وفضل الحكام الوطنيين"، ص. 540 – 553، والهامش 1 في صفحة 540 – 541، وكذلك دوماني، "جبل نابلس".
(28)- مناع، عادل. 1995. الحاج توفيق حماد في "أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني (1800 – 1918)". بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
(29)- دروزة، ص. 127 – 128.
(30)- دروزة، ص. 126.
(31)- دروزة، ص. 123 – 124.

(32)- دروزة، ص. 124 – 125.
(33)- دروزة، ص. 174.
(34)- دروزة، ص. 176.
(35)- دروزة، ص. 181.
(36)- دروزة، ص. 182.
(37)- دروزة، ص. 187.
(38)- دروزة، ص. 197.
(39)- 1909: درويش وحداتي. وحول حادث 31 مارس انظر:
http://www.executedtoday.com/2013/07/19/1909-dervish-vahdeti-for-the-31-march-incident/ accessed August 23, 2014.
(40)- دروزة، ص. 187.
(41)- دروزة، ص. 188.
(42)- النمر، "تاريخ..."، الجزء الثالث، ص. 47 – 48.
(43)- النمر، "تاريخ..."، الجزء الثالث، ص. 50.
(44)- التميمي، محمد رفيق، وبهجت يازار. 1916. ولاية بيروت. بيروت، مطبعة الإقبال، المجلد الأول، ص. 105.
(45)- النمر، "تاريخ..."، الجزء الثالث، ص. 48 – 49. انظر أيضًا محمد عقل، 2005. "وثائق محلية من فلسطين العثمانية ودراسات توثيقية"، كفر قرع، إسرائيل، دار الهدى، ص. 312 – 313.
(46)- النمر، "تاريخ..."، الجزء الثالث، ص. 49.
(47)- النمر، "تاريخ..."، الجزء الثالث، ص. 143.
(48)- النمر، "تاريخ..."، الجزء الثالث، ص. 143 – 144.
(49)- النمر، "تاريخ..."، الجزء الثالث، ص. 144.
(50)- النمر، "تاريخ..."، الجزء الثالث، ص. 144 - 145.
(51)- داود يعقوب، أوس. روحي ياسين الخالدي، 1864 – 1913: رائد البحث السياسي في فلسطين. القدس: مؤسسة القدس للثقافة والتراث.
http://alqudslana.com/index.php?action=article&id=2480; accessed August 29, 2014

المحاضرة الثانية

(عمّان، الأردن 2016)

تاريخ ومجتمع العراق بين حنّا بطاطو وعلي الوردي



دينا رزق خوري

بروفيسورة في التاريخ والعلاقات الدولية في جامعة جورج واشنطن، وحائزة زمالة مؤسّسة غوغنهايم. حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة جورج تاون تحت إشراف البروفيسور حنّا بطاطو في العام 1987. حاز كتابها الأوّل «الدّولة والمجتمع الولاية في الأمبراطوريّة العثمانيّة: الموصل 1519 – 1834»
State and Provincial Society in the Ottoman Empire: Mosul 1519-)
1834) (منشورات جامعة كامبريدج، 1997، 2002) جائزة فؤاد كوبرولو (الجائزة تمنح كل سنتين) السنوية من جمعية الدراسات التركية، وجائزة الصداقة الكويتية – البريطانية من الجمعية البريطانية للدراسات الشرق أوسطية. أمّا كتابها الثّاني «العراق في زمن الحرب: التجنّد والإستشهاد والتذكّر» (Iraq in Wartime: Soldiering, Martyrdom and Remembrance) (منشورات جامعة كامبريدج، 2013)، فيمثّل تاريخًا اجتماعيًّا لحرب إيران – العراق وحرب الخليج في العام 1991.

سأتحدّث اليوم عن مُقَاربتَين مختلفتَين لدراسة التاريخ العراقي وتبعات كلّ منهما على فهمنا الحالي لواقع العراق. فقد صاغت أعمال كلّ من حنا بطاطو وعلي الوردي بشكل عميق دراستنا لتاريخ ومجتمع العراق المعاصر. فحنّا بطاطو اعتمد على التحليل الطبقي الماركسي في تتبعه لتطوّر المجتمع العراقي من مرحلة تقليدية مبنية على ولاءات قبلية وعشائرية، إلى مجتمع حديث طبقيّ تتعايش فيه الانتماءات الطبقية والحزبية مع الولاءات القبلية وفي بعض الأحيان تتجاوزها. في المقابل، نهل علي الوردي من فكر ابن خلدون الاجتماعي وأعمال علماء الاجتماع الأميركيين والفرنسي إميل دوركيم. فهو لم يفهم تاريخ العراق بوصفه تقدّمًا باتجاه واحد من أشكال تقليدية للتنظيم الاجتماعي إلى أخرى حديثة، بقدر ما هو صراع مستمر بين الحضارة والبداوة، بين ثقافة الحياة الحضرية المستقرة والولاءات القديمة للقبيلة والطائفة.

سأبدأ أولًا بذكر ملاحظات عامة عدّة حول أعمال حنّا بطاطو وعلي الوردي.
لقد التقيت حنّا بطاطو للمرة الأولى في العام 1985م، وذلك بعد أشهر عدة من عودتي إلى جامعة جورج تاون من العراق حيث بقيت هناك لمدة ستة أشهر وأنا أبحث في الأرشيفات والمكتبات في بغداد والموصل وذلك تحضيرًا لرسالتي عن الموصل تحت حكم عائلة الجليلي. لكنني التقيته قبلها عن طريق كتابه الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق والذي اعتبرناه، أنا وزملائي الطلاب، نموذجًا لكيفية كتابة التاريخ المعاصر للعالم العربي.(1) ففي أكثر من 1200 صفحة، قدّم الكتاب دراسة لتطور الطبقات الاجتماعية الحديثة والحركات السياسية في العراق من أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وحتى عام 1976م. ورغم أن الهدف المبدئي منه كان محاولة في كتابة تاريخ صعود الحزب الشيوعي العراقي، أي ثورة عام 1958م وما تلاها، إلا أن بطاطو وسّع مداه بعدما سُمح له بالوصول إلى مصادر أكثر وبعد زيارته العراق في الستينيّات وبداية السبعينيّات للقيام بمزيد من البحث واللقاءات. نشر الكتاب في العام 1978م، في السنة نفسها التي نشر فيها إدوارد سعيد كتابه الإستشراق، حيث مثّل الكتابان معًا صعودًا للتحليل النقدي لدراسة الشرق الأوسط الحديث على يدَي أستاذين عربيّين منغمسَين في لغة العلوم الإنسانية والاجتماعية الغربية. وقد كانت النتيجة، بالنسبة إلينا نحن القادمين من العالم العربي لدراسة الشرق الأوسط في الولايات المتحدة الأميركية،

عميقة جدًّا. إذ سمحت لنا بالتفكير والكتابة ضد السائد في الأكاديميا الأميركية والتي كانت تُصوّر مجتمعات الشرق الأوسط كما لو كانت مترددة بين التراث والحداثة: شرق أوسط يفشل بشكل متكرّر في الوصول إلى النموذج الغربي في التطوّر. كانت هذه السردية عن تاريخنا المعاصر، في عقدَي السبعينيّات والثمانينيّات، العقدين الذين شهدا الحرب وإفلاس حكومات ما بعد الاستعمار، هي نفسها التي يحدثنا بها كثيرون من المعلقين العرب في الزمن الحالي. قدّم لنا كتاب سعيد، كما يعلم كثيرون منكم، أداة قويّة لنقد هذه الرؤية عن الشرق الأوسط وغيرها من الدراسات الأكاديمية الغربية عن العالم غير الغربي.

للأسف الشديد، لم يُحدث تاريخ بطاطو للعراق الحديث ذلك التأثير الكبير على الدراسة الأكاديمية للشرق الأوسط، وذلك رغم أنه ظلّ بمثابة الإنجيل لكل من يريد الكتابة عن تاريخ العراق. في الحقيقة، ظنّ كثيرون منّا عندما نشر للمرة الأولى أنه لم يعد هناك ما يكتب عنه في تاريخ العراق، فقد قال حنا بطاطو كل ما يمكن أن يقال. وكانت دراسته مفصّلة وشاملة، مكتوبة بشكل بليغ في بعض أجزائها، وعبّرت عن تفهّم وتعاطف مع الأشخاص الذين شكلوا تاريخ البلاد. لقد كان هذا الجانب من كتابه الذي لا يزال له مؤثره ونموذج لدراسة تاريخ المجتمعات العربية. فعلى عكس أغلب الكتابات عن السياسة في الشرق الأوسط، كان كتاب بطاطو تاريخًا للشعب في العراق. فرغم أنه قام بشكل منهجي ببحث أثر كلّ من الطبقة والوجاهة والعوامل البنيوية الكبيرة على صناعة السياسة العراقية الحديثة، كان كتابه تاريخًا عن سعي شعب، وغالبًا فشله، في صياغة مستقبله السياسي. فقد كان هناك كتب قليلة، في العام 1978م كما هي الحال اليوم، سواء باللغة الإنجليزية أم العربية تقدّم وجهة النظر هذه عن شعب يسعى لكتابة تاريخه على مدى قرن من الزمان. وفي هذا الجانب، هو أقرب لكتابات المؤرخ اليساري البريطاني إدوارد بالمر تومبسون الذي كتب عن تاريخ الطبقة العاملة في بريطانيا من أعمال علماء السياسة أو المؤرخين في دراستهم لتشكّل الأحزاب السياسية.[2] فقد قابل عددًا من العراقيين، واعتمد على مجموعة متميزة من المصادر، مثل ملفات الشرطة في الدولة العراقية، واعتمد على الشعر، والأغاني والأمثال الشعبية، ليبعث الحياة في عوالم الشخصيات الرئيسية التي ملأت صفحات كتابه.
لم يكن حنا بطاطو من العراق، بل كان نازحًا فلسطينيًّا بدأ اهتمامه بالعراق

عندما بدأت تؤدي دورًا مركزيًّا في الدبلوماسية الغربية بعدما انضمت إلى حلف بغداد في ذروة الحرب الباردة. أما علي الوردي فكان ابنًا للعراق، حيث ولد عام 1913 ونشأ في حي الكاظمية في بغداد لعائلة من الطبقة الوسطى، وتعلّم في الجامعة الأميركية في بيروت وفي جامعة تكساس حيث حاز شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع عام 1950م. شملت حياة علي الوردي غالب التطورات المهمة في التاريخ العراقي الحديث. فعند وفاته في العام 1995م، كان الوردي قد شهد تشكّل دولة عراقية، وثوّرة حولت الملكية إلى جمهورية، وعددًا من الانقلابات، ودكتاتورية، وثلاث حروب، وحصارًا. ولعلّ العامل الأكبر الذي ساعده في البقاء والاستمرار في البلاد هو رفضه لاتخاذ موقف معارض علنيّ للدولة وإصراره على أنه يجب على العلوم الاجتماعية أن تكون نقدية وبعيدة من الأيديولوجيا والسياسة. ولعل أكثر لحظاته اقترابًا من النقد العلني للدولة كان في محاضرته العامة التي شهدت حضورًا كبيرًا، والتي عقدت في بغداد في مارس/آذار 1991م بُعَيْد انتهاء حرب الخليج وقمع الانتفاضة العراقية. في هذه المحاضرة تطرّق الوردي لطرق إعادة بناء المجتمع العراقي بعد كارثة الحرب والعنف الذي حدث في الانتفاضة والذي لام فيها الحكومة على استهتارها وعنترياتها.[3]

ورغم أنه كان أحد مؤسسي قسم علم الاجتماع في جامعة بغداد في الخمسينيّات، إلا أنه اختار الاستقالة في العام 1972م وذلك مع بداية سعي الدولة لتطويع العلوم الاجتماعية في خدمة أيديولوجيا البعث. إلا أنه لم يتوقف عن الكتابة في الصحف وإعطاء المحاضرات الأكاديمية، رغم شعوره بالتهميش في السبعينيّات مع أبحاث الجيل الجديد من علماء الاجتماع الذي كان أكثر انضباطًا منهجيًّا. فقد كانوا أكثر احترافًا منه في تفادي مخاطر البحث في مساحة ضيّقة جدًّا من المواضيع التي يمكنهم التطرق إليها تحت حكم البعث في العراق.

على عكس بطاطو، لم يكن الوردي مفكرًا منهجيًّا أو باحثًا. كان أسلوبه في السرد انطباعيًّا، وكان ينتقي النظريات الاجتماعية الغربية والإسلامية لإثبات ادعاءاته من دون أن يوضح بشكل مفصل طريقته في الانتقاء. كانت كتابته سهلة، تعليمية، وبعض الأحيان حادة النقد. ولعل أسلوبه هذا الذي كان محل انتقاد من قبل علماء الاجتماع العراقيين بعد السبعينيّات هو الذي يجعلنا نخفق في وضعه ضمن سياق تاريخي.[4] فأعمال علي الوردي الأولى، أي تلك

الأعمال التي كتبها في الخمسينيّات، كانت قد كُتبت على طريقة مثقفي النهضة وعلماء الإجتماع في المرحلة الأولى من القرن العشرين. حيث كان يختار بشكل انتقائي وبعض الأحيان سطحي من بين علماء الاجتماع الأميركيين من أمثال ماكئيڤر وميد، وكذلك من دوركيم، ويسعى لتوظيف مناهجهم لقراءة مجتمعه معتمدًا على أعمال ابن خلدون. فمثل الجيل الأول من النهضويين، لم تكن أعماله موجهة للمتخصصين، بل لجمهور القراء المثقفين. كان يتساءل: كيف نستطيع أن نستخدم التصنيفات الغربية في العلوم الاجتماعية لفهم أنفسنا؟ كيف يمكن أن نستخدم مناهجهم النقدية و«العلمية» لتحقيق قراءة غير مثالية أو طوباوية لماضينا وحاضرنا؟ وأخيرًا، كيف يمكن أن نتفادى الاقتباسات غير النقدية منهم ونسعى لتبيئة مناهجهم لإعادة قراءة نصوصنا التاريخية وتراثنا؟

كان ألدّ أعداء علي الوردي طيلة فترة حياته ما وصفه بالمثالية والطوباوية في التفكير. فالنمط الأول من التفكير كان متفشيًا في القراءة والكتابة التقليدية للتاريخ والسياسة في العراق والعالم الإسلامي.[5] ما يحدد هذا النمط هو الأحكام باعتبارها مبنية على تفكير رغبوي لا يأخذ في الاعتبار واقع المجتمع العراقي والعربي. فعندما دعي إلى مصر في العام 1962م ليؤدي دورًا في تأسيس علم اجتماع عربي، رفض المشروع باعتباره مثاليًّا ومحاولة لفرض وحدة على عالم عربي مليء بالمجتمعات المتنوعة. آخر أعماله المهمة، وفي الحقيقة أكثرها تعاطيًا منهجيًّا مع دراسة مجتمع وتاريخ العراق، هو عبارة عن تاريخ متعدد الأجزاء للعراق عنوانه لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث حيث قدّم فيه مقاربته حول طريقة دراسة المجتمع العراقي. نشر الكتاب في الفترة ما بين 1968 و1975م، أي تقريبًا في الفترة نفسها التي كان بطاطو فيها ينهي كتابه عن العراق.[6]

سأنتقل الآن لتناول رؤى كلّ من بطاطو والوردي حول تاريخ العراق ومجتمعه.

كان بطاطو مهتمًا بالثورة بشكل عام وبالثورة العراقية عام 1985م بشكل خاص.[7] كان اهتمام بطاطو بالثورة نتيجة لنوع الأسئلة المطروحة في المجتمع الأكاديمي في الولايات المتحدة الأميركية في فترة الخمسينيّات والستينيّات من القرن الماضي. إذ كان علماء الاجتماع يسعون لتفسير نجاح الثورتين الصينية والكوبية وكذلك صعود الحركات المناهضة للاستعمار. في

هارفارد، حيث درس بطاطو، فسّر عالم الاجتماع بارينجتون مور صعود الأنظمة الديمقراطية والديكتاتورية في الغرب وروسيا والصين باعتبارها نتيجة قوّة أو ضعف الفلاحين والطبقة البورجوازية في هذه المجتمعات والتحالفات الطبقية التي نشأت لتشكيل النظام السياسي. فأشكال الحكم الديمقراطي تنشأ عندما تكون التجمعات الفلاحية ضعيفة، وعندما تكون هذه الأخيرة قوية، فإن التحديث السياسي يأخذ شكلًا دكتاتوريًّا كما حدث في الصين وروسيا.(8) إن هذه المقاربة الماركسية الجديدة (neo-Marxism) لدراسة التغيرات الاجتماعية والسياسية هي التي كان لها التأثير الأكبر في دراسة بطاطو لصعود الحركات والأحزاب السياسية الحديثة. كما أنها سمحت له بتفسير لماذا فشلت الطبقة الوسطى العراقية في تأسيس بديل ديمقراطي اشتراكي بعد الثورة في العراق.

حاول بطاطو الإجابة عن ثلاثة أسئلة في كتابه: ما هي القوى التي أدّت إلى تحول المجتمع العراقي من مجتمع زراعي وقبلي في غالبه إلى مجتمع حديث؟ كيف استطاع شعب مقسّم عشائريًّا وطبقيًّا وإثنيًّا أن يحدث تغييرًا سياسيًّا؟ أخيرًا، ماذا يفسر شكل النظام السياسي الخاص الذي أنتجته الثورة؟

حلل بطاطو المجتمع العراقي بالاعتماد على مفهومين مركزيين: الأول هو الطبقة، والثاني هو المكانة. فبالاعتماد على أعمال كلّ من ماركس وفايبر، اعتبر التمايزات في المجتمع العراقي التقليدي مبنية على أشكال الملكية، خصوصًا ملكية الأرض، وعلى المكانة الاجتماعية، والمقصود بها موقع الشخص في هرمية مجتمع يعتمد على الأشكال العشائرية والقبلية للتماسك الاجتماعي وكذلك التبعية السياسية. فقد تتبع في الجزء الأول من كتابه تحوّل النظام الاجتماعي التقليدي في العراق من أواخر القرن التاسع عشر إلى نهاية عهد الملكية. وتحولت الطبقات الاجتماعية القديمة في العراق، كما كان يدعوها بطاطو، مع اندماج العراق في اقتصاد السوق العالمية وبداية إدخال الإصلاحات التحديثية في العهد العثماني. كما تتبع تحوُّل الشيوخ القبليين إلى ملاك إقطاعيين وحلفاء للملكية وكذلك تحوُّل البدو إلى فلاحين فقراء أو مهاجرين إلى شرق بغداد. كما أنه راقب كيف صعدت طبقة جديدة من التجار والصناعيين تحت حكم الملكية وربط بينهم وبين تشكُّل الإحزاب القومية، خصوصًا الحزب الوطني التابع لجعفر أبو التمن وحزب الاستقلال، وكذلك الحزب

الوطنـي الديمقراطـي. أخيـرًا، ناقـش نظـام التبعيـة السياسـية الـذي تشـكل بواسـطة الملكيـة والـذي سـيطر عليـه الضبـاط الذيـن قدمـوا مـع الملـك فيصـل إلـى العـراق.

ختـم بطاطـو جـزأه الأول بتأكيـد خلاصتيـن رئيسـيتين: الأولـى، أنـه مـع نهايـة عهـد الملكيـة، تطـورت المجموعـات الطبقيـة والوجاهيـة بطـرق أفسـحت المجـال لتشـكل ولاءات اجتماعيـة معتمـدة علـى المصالـح ومتجـاوزة للانقسـامات القبليـة والمناطقيـة والعشـائرية. وقـدّم مثاليـن لتدعيـم هـذه الخلاصـة: المثـال الأول هـو الحـزب الوطنـي التابـع لجعفـر أبـو التمـن والـذي جمـع التجـار بالطبقـات الحضريـة المتوسـطة، بالطريقـة نفسـها التـي قامـت بهـا أوائـل التنظيمـات العماليـة فـي العشـرينيّات الميلاديـة والتـي تكونـت فـي مختلـف مناطـق العـراق وكذلـك مـن مختلـف الطوائـف. أمـا الثانـي فهـو الحلـف الـذي قـام بيـن كبـار المـلاك القبلييـن والملكيـة بعـد انقـلاب الجيلانـي عـام 1941م، وهـو حلـف أبـدى وعيًـا طبقيًّـا (مـا يدعـوه ماركـس بطبقـة مـن أجـل نفسـها) تجـاه التهديـد الـذي يمثلـه الجيـش. أمـا الخلاصـة الثانيـة فمفادهـا أن نهايـة هـذه الطبقـة الحاكمـة كان لا مفـرّ منهـا وذلـك نظـرًا إلـى عجـز الملكيـة عـن التنـازل والتسـوية مـع المطالـب السياسـية والاجتماعيـة للأحـزاب الممثلـة للطبقـات الوسـطى والدنيـا.

سـجّل كل مـن الجزأيـن الثانـي والثالـث مـن كتـاب بطاطـو مسـاهمته الرئيسـية فـي دراسـة العـراق. ففيهمـا يشـرح بالتفصيـل ولادة الأحـزاب السياسـية الحديثـة: الحـزب الشـيوعي، الحـزب الوحيـد الجماهيـري، وكذلـك حـزب البعـث. وفـي أثنـاء هـذا الشـرح يـدرس تطـوّر طبقـة وسـطى جديـدة وأخـرى عماليـة، ويتتبـع كيفيـة تسيُّسـهما وتحالفاتهمـا. وهنـا تحديـدًا يتجلـى افتتـان بطاطـو بالثـورة والحـركات الاجتماعيـة بوصفهـا طرقًـا لقـدرة العراقييـن علـى تغييـر حياتهـم الاجتماعيـة والسياسـية. فهـو يبنـي السـردية فـي هـذا القسـم حـول ثـلاث انتفاضـات رئيسـية وعنيفـة وينطلـق منهـا لبنـاء البنـى الرئيسـية لتحليلهـا مـن أجـل تفسـيرها. فهـو وجـد أن هـذه الانتفاضـات قـد وفـرت مـا يسـميه سـامي زبيـدة المجـال السياسـي، وهـو الفضـاء الـذي تلتئـم فيـه الـولاءات العراقيـة المتنوعـة حـول مشـروع وطنـي.
أول هـذه الاحتجاجـات اسـمه الوثبـة وحـدث فـي العـام 1948م، وهـو موجـة احتجـاج كبيـرة فـي بغـداد ضـد توقيـع معاهـدة بورتسـموث التـي ربطـت العـراق ببريطانيـا فـي علاقـة شـبه اسـتعمارية. أمـا الثانـي فقـد كان انتفاضـة عـام 1952م والتـي

تميزت بسلسلة من التظاهرات ضد رفض الملكية لإصلاح القانون الانتخابي من أجل السماح بتمثيل أكثر عدلًا للمصالح والآراء السياسية. وما ميّز كل من الوثبة والانتفاضة هو أنه للمرة الأولى قامت الصراعات السياسية الحديثة، أي سياسات الحشد الجماهيري، بتشكيل تحالفات بين أحزاب مختلفة للنضال من أجل أهداف مشتركة. لم تدم التحالفات في أيٍّ من الحالتين طويلًا وتلتهما فترات قمع قاسية، عادة ما تكون موجهة ضد الحزب الشيوعي. ومع ذلك، فهاتان اللحظتان، بالنسبة إلى بطاطو، قدمتا نموذجًا للحشد الجماهيري الذي سيحدث في العام 1958م.

تساءل بطاطو لماذا بدأت ثورة عام 1958م كانقلاب دشنه الضباط الأحرار ولم تبدأ كثورة شعبية تعكس التحالفات بين مختلف الطبقات كما حدث في كلّ من الوثبة والانتفاضة. وهنا تحديدًا سيبدأ بمواجهة سؤال التكوين الاجتماعي لضباط القوات المسلحة وعلاقتهم بالتوجهات الاجتماعية في المجتمع العراقي.

هل كانت ثورة 1958م ثورة طبقة وسطى، كما جادل الحزب الشيوعي نفسه لتبرير دعمه لعبدالكريم قاسم؟ فإذا كان الضباط يمثلون الطبقة الوسطى الجديدة في المجتمع العراقي، فلماذا تبدو انقساماته على أسس عشائرية وقبلية وطائفية غير قابلة للوصل؟ لماذا كان الضباط الأحرار يتحدّرون بشكل واضح من المناطق الواقعة شمال وغرب بغداد والتي كانت في غالبيتها مناطق سنية؟

وما كان مشكلًا بالنسبة إلى بطاطو بالمقدار نفسه أيضًا هو العنف الذي تجلى خلال تمرّد الشوّاف وبعده في الموصل وانتفاضات كركوك عام 1959م في قمة قوّة الشيوعيين في الشوارع. في كلتا الحالتين، كان الحزب الشيوعي متورّطًا بشكل عميق في العنف وكان أعضاؤه يجيشون الناس ليس على أسس طبقية بل على أسس عرقية. لقد بدا الأمر كما لو أن كامل صرح حجته القائلة بانتقال المجتمع العراقي من الأشكال التقليدية للهوية إلى الأشكال الحديثة للتنظيم السياسي كان خاضعًا لاختبار صعب.

كان بطاطو حذرًا طوال الوقت حيث أبرز الطرق التي قامت بها الشبكات القائمة على القرابة والعشيرة بتأدية دور في توظيف العراقيين في الجيش والأحزاب السياسية، بما في ذلك الحزب الشيوعي وحزب البعث. ففي نهاية الأمر، وكما قال المؤرخ إيريك هوبسباوم، لا يغير المرء هويته إلى أخرى كما يغير أحدنا فردات حذائه. إلا أنه، وكما أشار عالما الاجتماع العراقيان فالح

عبدالجبار وسامي زبيدة، لم يستطع بطاطو أبدًا تقديم تفسير مقنع للسبب والكيفية التي تم فيها تحديث وتحوّل الولاءات العشائرية.[9] والسبب في ذلك يعود في جزء منه إلى إصراره على التعامل معها باعتبارها مخلفات لولاءات تقليدية قديمة، مخلفات يمكن أن تبقى لكنها ستختفي أو يتوجب عليها أن تختفي في نهاية المطاف إذا ما بدأ التكامل الوطني أو ما يسميه بالتجانس الوطني بالتشكل. سأعود إلى هذه النقطة مرة آخرى في الفقرة الأخيرة من هذه المحاضرة.

مثل حنّا بطاطو، كان علي الوردي مهتمًا بمسألة تحديث المجتمع العراقي. فمثله مثل عدد من مثقفي النهضة، قام بوضع المسألة بمصطلحات واضحة باعتبارها صراعًا بين القديم والحديث وبين العلم والمثالية. فهذه هي المصطلحات التي استخدمها في أعماله التي أنتجها في الخمسينيّات عن الشخصية العراقية وفي طبيعة المعرفة المنتجة من قبل النخب الدينية والثقافية العراقية القديمة. وهنا، سأركّز أكثر على تعاطيه الأكثر منهجية مع العلوم الاجتماعية، وبشكل خاص كتبه التي أنتجها بين عامي 1965م و1978م.

يمكن فهم الخلفية السياسة التي دفعته لإنتاج هذه الكتب في كل من العنوان والإهداء في الجزء الأول منها. في العام 1965م، نشر الوردي «دراسة في طبيعة المجتمع العراق: هل يختلف العرب عن غيرهم من الأمم؟ وهل يختلف أهل العراق عن غيرهم من العرب؟». وأهدى هذا الكتاب إلى «الذين يشغفون بالأفكار «العالية» فيحاولون تطبيقها في مجتمعهم بغض النظر عن طبيعة المجتمع وظروفه. لقد آن لهم أن ينزلوا عن أبراجهم العاجية وأن يأخذوا في الاعتبار مقتضيات الواقع الاجتماعي الذي يعيشون فيه».[10]

يتناول كلٌّ من العنوان والإهداء مسألتَين حرّكتا دراسته للعراق. الأولى هي عبارة عن تحذير تجاه التطبيق الذي لا يصاحبه كثير من البحث والتحليل للأفكار المجردة التي أنتجها علماء اجتماع من أماكن أخرى على المجتمعات التي نعيش فيها. والوردي هنا يبني على ما كان يطالب به مبكرًا بتبني ومواءمة مناهج (يسميها علمًا) العلوم الاجتماع الأوروبية للواقع الخاص بالعالم العربي والعراق. وهو في هذا الجانب، لا يختلف عن مجموعة علماء الاجتماع في مصر والعراق في عقدي الأربعينيّات والخمسينيّات. إلا أنه كان

أيضًا يخاطب النخبة المثقفة الجديدة، والتي تشكلت في أعقاب ثورة 1952 في مصر وثورة 1958 في العراق، والذين كانوا يعيدون كتابة تاريخ العراق والعالم والعربي ضمن أيديولوجية، على الأقلّ حسب وجهة نظر الوردي، تربط بين الاستعمار والأنظمة القديمة والتخلف. فهو كان معارضًا لكلّ محاولة تسعى لتفسير المجتمع العراقي على أساس طبقيّ أو أي تفسير يمنح آليه للاقتصاد السياسي والاستعمار في المركب الاجتماعي للعراق. كما استهدف الوردي أولئك العراقيين الذين حاولوا دمج تاريخ العراق ضمن تاريخ الأمة العربية، حيث دافع عن نوع من الخصوصية العراقية يقرب الى الاستثنائيّة. ركّز عمل الوردي على الصراع بين الحضارة والبداوة، صراع يمتد للشخصية الاجتماعية العراقية التي تتميز بثنائية تشكّل نوعًا من النشاز. وعبر توظيفه لابن خلدون، دمّر الوردي المعنى من عمله نفسه. فابن خلدون كان مهتمًا بالصراع بين الحضارة والبداوة باعتبارها أنظمة اقتصادية وسياسية. فقد رأى في استيلاء البدو على المدن قوّة إبداعية ومدمرة في الوقت نفسه. فالبدو يبعثون الحياة في الأنظمة السياسية المتهالكة حتى يصبحوا هم أنفسهم متبيّئين فيها. أما الوردي فاعتبر البداوة حالة ذهنية في الوقت نفسه الذي اعتبرها قوة تدميرية. فالبدواة عبارة عن مجموعة من الممارسات الثقافية والاجتماعية التي استطاعت البقاء في المدن كما في الأرياف وتزرع في المجتمع الانقسام والصراع. في العصر الحديث، هذا الصراع بين البداوة والحضارة يأخذ شكل صراع بين الحديث والقديم، بين التراث والحداثة (رغم أن الوردي نادرًا ما يستخدم هاتين الكلمتين). لا يعتبر هذا الصراع علامة على فترة انتقالية سيتحرر العراقيون بعدها من هذا الصراع الداخلي وينتقلون إلى مجتمع حداثي متكامل. على العكس من ذلك، هو صراع مستمر ويصوّر جوهر تطور العراق في العصر الحديث.

إن هذا الصراع الثابت بين الحضارة والبداوة هو ما يميز الخصوصية العراقية. فالعراق يعتبر تخمًا بين العالم القبلي للجزيرة العربية والقوة السياسية الشيعية لإيران. ففي أغلب تاريخه، شهد العراق هجرات قبلية من الجزيرة العربية مثّلت هزة لاستقرار الحياة الحضرية وهددت النعيم الاقتصادي للمدن. آخر الهجرات القبلية، والتي كان لها أكبر الأثر في تاريخ العراق الحديث، كانت هجرة قبيلتي شمّر وعنزة في القرن الثامن عشر الهجري، والتي كانت في جزء منها نتيجة توسُّع السلطة الوهابية. لقد عنى موقع العراق كتخم بين إسلام

سني وآخر شيعي وموقع مدنه المقدسة: النجف وكربلاء، أنه ساحة لصراع أيديولوجي يتطور عادة نحو صدام طائفي. فالصراع بين الحضارة والبداوة وبين المجتمعات الدينية شكّل مجموعة من الحقائق الاجتماعية التي حددت تاريخ تفاعلات العراقيين الاجتماعية وكذلك مظاهرهم النفسية والاجتماعية (وهنا يعتمد الوردي دوركيم كما فهمه النهضويون). مثّلت هذه القيم الاجتماعية عائقًا أمام تطور مجتمع وطني عراقي متجانس.

كان الوردي متشكّكًا بشكل كبير حول دور الحشد الجماهيري والثورة والتمرّد في خلق هوية عراقية متجانسة. وكان عاجزًا عن التحليل بشكل منهجي صعود الحركات الجماهيرية في الأربعينيّات والخمسينيّات. في مقدمة تاريخه للعراق متعدد الأجزاء المُعَنون لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، تأمل الوردي في معنى الحشد الجماهيري. فقد شبّه فهم العراقيين لمجتمعهم بهرم يمثّل كل جانب من جوانبه واجهة من الهوية والشخصية العشائرية العراقية. فالعراقيون بإمكانهم النظر تجاه أحد جوانب الهرم ورفض الاعتراف بوجود الجانب الآخر. وبمجرد أن يقوم أحدهم بذلك، يصبح فعلًا موضوعيًّا ويستطيع النظر إلى ما هو أبعد من مجتمعه الخاص. عدا ذلك، يظلّ الأفراد في حالة التنويم الاجتماعي. في العصر الحديث، خصوصًا في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، اتسّم المجتمع العراقي بما دعاه «الحماس الجماعي». فرغم أنّ بإمكان الحماس الجماعي حشد الناس لقتال معتدٍ أو ظالم، فإنه أيضًا يقود إلى قصور النظر والافتقار للموضوعية.

هذه النظرة للحشد الجماهيري متفشية في تحليل الوردي لثورة العشرين ضد البريطانيين في العراق. فهذه الثورة، بالنسبة إلى الوردي، لم تكن انتفاضة وطنية أو مناهضة للاحتلال جمعت بين زعماء القبائل في منطقة وسط الفرات مع الوطنيين في المدن العراقية. على العكس من ذلك، كانت انتفاضة قبلية مشحونة بالمصالح الشخصية الضيقة للشيوخ القبليين. تصوير هذه الانتفاضة بوصفها إشارة إلى أول شعور وطني، كما يدّعي كثيرون من العراقيين، هو أمر خاطئ.[11]

ما هو تصوُّر الوردي لثورة عام 1958م؟ لقد شعر الوردي أنه تم تجاهله من قبل الثورة وكان خائفًا ممن كان يسميهم بالغوغاء. شعر بالتهميش كأستاذ

وكمثقف شعبيّ وعبّر عن هذا الشعور في حاشية ملحقة لكتاب عن الأحلام نشره في العام 1959م بعد الأحداث الدموية في الموصل وكركوك. فقد ذكر أنه كان منحازًا لليسار في فترة الملكية. كما اشتكى من أن هناك أشخاصًا قليلين يقرأون كتبه في وقت الثورة وذلك لأن أذواقهم تغيرت. فالعهد الجديد قد جاء معه بكتاب جديد يقدَّم للأشخاص الموجودين في السلطة وللأذواق الشعبية عوضًا عن إنتاج أعمال «موضوعية».[12] بالإضافة إلى شعوره بالتهميش من قبل الثورة، لم يستطع الوردي مواءمة ظهور الشعب كقوة فاعلة في التاريخ ضمن إطاره النظري لفهم السياسة والشخصية العراقية. ما هي قوى التغيير الاجتماعي التي شكلت الشعب التي يمكن العثور عليها في تحليله للمجتمع العراقي باعتباره في صراع ثابت بين الحضارة والبداوة؟ في أي مجال سياسي تطوّر إذا كانت الأحزاب السياسية ليست شيئًا آخر سوى انعكاس لهذا الصراع؟ ما هو الدور الذي أدّته التغيرات السياسية والاقتصادية في العراق في تشكل الشعب؟ ولأن الوردي كان شديد الارتباط بفكرة المجتمع باعتباره حالة دائمة من الصراع بين شكلين اجتماعيين ثابتين، كان من الصعب عليه تفسير صعود السياسات الجماهيرية.

بالنسبة إليه، السياسات الجماهيرية مهددة بأن تُختطف من قبل الغوغاء والذين كان يساويهم، مقتبسًا من ماركس، بالبروليتاريا الرثّة. فعنف الثورة، وحماسة الجيل الجديد، وحدّة الصراعات الحزبية في العام 1959، كانت كلّها نتيجة طبيعة المجتمع العراقي. والطريق الوحيد للعراقيين للخروج من هذا الاستقطاب يكمن في ممارسة السياسة من خلال الحوار ضمن إطار ديمقراطي يأخذ مصالح الأغلبية في الاعتبار. إلا أن تشاؤمه قاده لاستنتاج أن المجال السياسي في الملكية كان أكثر مواءمة للديمقراطية من السياسات الجمهورية التي ظهرت بعد عام 1958م. وهي الخلاصة التي وجدت لها أنصارًا داخل العراق وخارجه بعد فشل حرب عام 1991م وتدمير العراق الذي جلبه عليه نظام البعث أولًا، ثم الولايات المتحدة الأميركية لاحقًا.

أودّ الآن الانتقال إلى الجزء الأخير من حديثي هذا والذي سأقوم فيه بتقديم بعض الملحوظات حول تبعات كلٍّ من مقاربة بطاطو والوردي على فهمنا اليوم للعراق. فمن ينظر إلى تاريخهما للعراق الحديث في العام 2016م،

سيميل لأن يجد الكثير مما قدمه الوردي معينًا على فهمنا للحاضر. فابتداءً من التسعينيّات الميلادية، تمت إعادة نشر كتب الوردي وتوزيعها بشكل واسع. إن إعادة إحياء الوردي تشير إلى مساءلة واسعة للعالم العربي لمشروع التحديث ولأنظمة ما بعد الاستعمار التي حكمت منذ الخمسينيّات الميلادية.[13]

يبدو المجتمع العراقي كما لو كان ممزقًا بين القبلية والطائفية، ويبدو أن خطابه السياسي مسيطرًا عليه من قبل ما سماهم الوردي في كتاب ينتقد فيه الدين عام 1954م بـ«وعاظ السلاطين». بعض المثقفين العراقيين اليوم يعيدون الاعتبار بشكل جاد لعمل علي الوردي بوصفه عالم اجتماع، حيث أوردوا ثلاث سمات في عمله ما زالت مستمرة.[14] الأولى هي إصراره على الاستثنائيّة العراقية، والمقصود بها تحليله للمجتمع العراقي ليس بوصفه شكلًا من أشكال المجتمع العربي، أو بوصفه مجتمعًا في حالة انتقالية قابلة للمقارنة بغيره في العالم، بل باعتباره مجتمعًا بجوهر متميز تشكّلت من خلال ديناميته التاريخية الخاصة. منح فهم الوردي للعراق هؤلاء المثقفين بنقد للأدبيات حول العراق والتي أنتجت في عهد البعث في السبعينيّات والثمانينيّات وشددت على عروبة العراق ورصيده في مقاومة الاستعمار كبلد من العالم الثالث. فقد وجد أنصار الوردي الجدد فهمًا منعشًا وغير مؤدلج لتاريخ المجتمع العراقي. أصبح عمله أداة للثورة من قبل بعضهم ضد أيديولوجيات الماضي الشمولية والتجانسية. كما ساعدت أعماله في تدعيم سردية قديمة للوطنية العراقية تم قمعها بعنف في العراق إبان حكم البعث: وطنية تنادي بإدراك التكوين الاجتماعي الفريد للعراق باعتباره بلدًا متعدد الطوائف والأديان والإثنيات والذي لا ينبغي لأي أيديولوجية أو سردية تاريخية مهيمنة أن تحكم. ورغم الرؤية المحافظة للوردي تجاه المجتمع العراقي، نجده يعيد إحياءه بوصفه ليبراليًّا ديمقراطيًّا. فمشروع الوردي وإن لم يكن ليبراليًّا (بل على عكس ذلك كان مناهضًا لفكرة حركة التنوير الغربية التي تؤمن بإمكان التقدم والتكامل في المجتمع الإنساني)، فقد كان نهضويًّا في إصرار صاحبه على وجوب صنع تاريخ حاضر على ركيزة «علمية» وغير طوباوية أو مثالية.

بالإضافة إلى ذلك، يرجع هذا الاهتمام الجديد في عمل الوردي إلى أن تاريخه لمجتمع العراق الذي كتبه، يجب أن نتذكر، إبان حكم البعث، كان من أول من دمج الشيعة في سردية تاريخ العراق على مدى ثلاثة قرون. فهو كتب ما نقدر

أن نصفه كمكافحة لسردية مهيمنة منذ العهد الملكي وحتى حكم البعث على تاريخ العراق مبنية على تاريخ الطبقات المسيطرة سياسيًّا وثقافيًّا ومعظمهم من سُنة المدن الثلاث الكبرى. وعلى مستوى آخر، نظر الوردي إلى الصراع بين البداوة والحضارة باعتباره عنصرًا ثابتًا في الشخصية الاجتماعية العراقية أعانته على فهم، بطريقة ملائمة ومختزلة، صعود البعث التكريتي، وإعادة تقبيلية (retribalization) المجتمع العراقي منذ التسعينيّات الميلادية، وكذلك طبيعة العنف الذي تفشى في السياسة العراقية منذ بداية العهد الجمهوري.

أخيرًا، كان عمل الوردي مفيدًا بشكل خاص بوصفه نقدًا لصعود الدين وتوظيفه في السياسة في العصر الحالي. لم يكن الوردي علمانيًّا، فعلى الأقلّ لم يتناول أيٌّ من أعماله قضية الحكومة العلمانية. على العكس من ذلك، فقد كان له فهمٌ عميق للمجتمع الشيعي، خصوصًا كونه ولد ونشأ في الكاظمية وحافظ على علاقاته بحيّه عن طريق حضور المجالس وزيارة المقاهي. ففي كلّ أعماله، نجده يستشهد بالرسول، وعلي بن أبي طالب، وبالحديث والقرآن، بالطريقة نفسها التي يستشهد فيها بالشعر والأمثال الشعبية ليوضح وجهة نظره. لقد كان لديه أسلوب المحدِّث الذي كان يستطيع تضمين المفاهيم المجردة للعلوم الاجتماعية باقتباسات من النصوص الدينية. بمعنى آخر، كانت أعماله تتحدث باللغة المتفشية في الثقافة الشعبية والسياسة في العراق. إلا أن الوردي كان ناقدًا لوجود الدين في السياسة وذلك لأنه كان مقتنعًا بأنه يجلب معه عقلية مثالية وغير نقدية. بمعنى آخر، لم يكن الدين ملائمًا للسياسة الديمقراطية. ولهذا السبب تمّ استخدام أعماله لنقد الخطاب الحالي للسياسة في العراق.

على النقيض من أعمال الوردي، تبدو تحليلات بطاطو الطبقية وتفاؤله النسبي بمشروع الحداثة وبناء الأمة العراقية غير ملائمة للعام 2016م. ورغم أن كتابه تُرجم إلى العربية في التسعينيّات الميلادية وتم نشره بشكل موسّع ضمن الأدبيات السرية خلال العقد الأخير من الحكم البعثي، فإنه لم يُنتج تحليلًا من قبل المثقفين العراقيين وعلماء السياسة كما حدث لأعمال الوردي. كان المعلّقون العراقيون على بطاطو علماء اجتماع ومثقفين ينتمون إلى اليسار أبدوا تقديرًا لصرامة تحليلاته وضخامة المواد التي اعتمد عليها، لكن أيضًا قدّموا نقودات منهجية ونظرية. ما زال كتابه يقرأ لما فيه من معلومات تاريخية، خصوصًا

لأنـه استطاع الوصـول إلـى مصـادر تعتبـر اليـوم إمـا مفقـودة وإمـا متلفـة. ومـع ذلك، فـإن تقييمـه للمجتمـع العراقـي ومقاربتـه المنهجيـة لدراسـته لـم تُعـدّا ضمـن النقاشـات العامـة حـول كيفيـة فهـم الحاضـر العراقـي. ويعـود هـذا الأمـر فـي جانـب منـه إلـى تدميـر الدولـة العرقيـة والتجانـس الوطنـي العراقـي. كمـا أنـه أيضًـا نتيجـة اللحظـة الخاصـة فـي التاريـخ والتـي نجـد أنفسـنا فيهـا اليـوم.

لقـد تمـت إعـادة بعـث الهويـات الطائفيـة، وفـي بعـض الحـالات تـم اختراعهـا، وكذلـك الأمـر بالنسـبة إلـى الهويـات القبليـة. لا يتحـرك النـاس ضمـن حـدود الطبقـة والعشـيرة ليشـكلوا تحالفـات مـن أجـل خلـق مشـروع وطنـي كمـا أوضـح بطاطـو. فـي حقيقـة الأمـر، تبـدو محـاولات تفسـير الصراعـات السياسـية بمفهـوم الطبقـة بـدلًا مـن العشـيرة والطائفـة غيـر مفيـدة فـي الجـوّ الحالـي للشـرق الأوسـط. فأجهـزة الدولـة الخدماتيـة التـي اعتـادت علـى تقديـم الخدمـات الاجتماعيـة والتعليـم لمواطنيهـا والتـي كانـت الركـن الرئيسـي للمطالبـة بالمواطنـة الحديثـة، تحولـت إلـى شـركات أبويّـة تـوزع الأعمـال الخيريـة لأتباعهـا المفضليـن. هـذا جانـب مـن بنـاء الدولـة لـم يتطـرق لـه بطاطـو.

إن هـذه الصـورة محبطـة ومعتـادة للشـرق الأوسـط ولا أريـد أن أبـدو كمـا لـو أننـي أعـظ للمؤمنيـن. إلا أنـه يبـدو لـي فـي محاضـرة تحيـي ذكـرى حنـا بطاطـو أنّ مـن المهـم أن ننظـر مـرة أخـرى لاسـتمرارية وتبعـات عملـه علـى فهمنـا للعـراق.
فبطاطـو، علـى عكـس الـوردي، لـم يعتقـد أن تنـوّع المجتمـع العراقـي يضطـره لأن يأخـذ مسـارًا اسـتثنائيًّا فـي التطـوّر الاجتماعـي والتاريخـي. بكلمـة أخـرى، هـو لـم يؤمـن قطّ بالاسـتثنائية العراقيـة. فقـد ولـد اهتمامـه المبدئـي بالعـراق مـن رغبتـه فـي دراسـة ثـورة عـام 1958م فـي إطـار مقـارن مـع الثـورات الموجـودة فـي أماكـن أخـرى مـن العالـم. فقـد جـاء اعتمـاده علـى فاييـر وماركـس وغيرهمـا مطعّمًـا بكوزموبوليتانيـة المثقفيـن النازحيـن فـي زمانـه. فتنـوّع العـراق، وانقسـاماته القبليـة والعشـائرية والإثنيـة كانـت عراقيـة، لكـن العراقييـن كغيرهـم مـن شـعوب العالـم، كانـوا منقسـمين علـى أسـس متقاربـة. قـد يبـدو تأكيـد هـذه الخلاصـة بسـيطًا للوهلـة الأولـى، إلا أنـه يحمـل معـه تبعـات عميقـة لدراسـة العـراق ومجتمعـات الشـرق الأوسـط بشـكل عـام.
فعلـى المسـتوى المبدئـي، تسـمح هـذه الخلاصـة بفهـم مشـروع تحديـث العـراق،

بنجاحاته وإخفاقاته، باعتباره جزءًا من عملية عالمية للتغيُّر أثّرت في المجتمعات بشكل مختلف. وكمثال على ما أقول، هناك الكثير من الأعمال التي كتبت عن النظام السياسي للبعث ودكتاتورية صدام حسين والتي صورتها بأنها إما مقاربة للأنظمة الشمولية النازية والسوفييتية، وإما تمظهرات لجوهر قبَلي وطائفي لا يتغير في التكوين الاجتماعي العراقي. في كلا هذين التصويرين للبعث، نجد العراق أصبح بلدًا بعيدًا، لا يقارن إلا بأشدّ الأشكال السياسية تطرفًا، وأن مجتمعه وتاريخه في حاجة إلى تفسير خاص، وإلى أصناف خاصة للفهم. وكما بيّنت الأبحاث الأخيرة، فإن النظام البعثي كان سلطويًّا وليس شموليًّا، عنيفًا لكن أيضًا مستعدًّا لتقبّل ومكافأة الآخرين الذين يستعدون للعمل معه إن كانوا من السنة أم الشيعة أم الأكراد. ما كان يهمّ الدولة البعثية، ككلّ دولة سلطوية، هو الطاعة. اعتمد البعث التكريتي على الشبكات العشائرية للحفاظ على سلطته، وفضّل توظيف أشخاص من منطقته نفسها ليس لوجود خصائص ثقافية عميقة وغير متغيرة ولكن لأسباب استراتيجية وسياسية. هذا النوع من الأنظمة السياسية القائمة على الاستتباع ليس إلا شكلًا من أشكال الحكم المنتشرة في العالم من البلدان الشيوعية وبعد الشيوعية إلى بلدان الأنظمة السلطوية في أميركا اللاتينية. أي أنها ليست ظواهر خاصة بالقبلية الثقافية أو الطائفية للمجتمع العراقي، بل لعوامل بنيوية محلية وإقليمية ودولية.

إذا قبلنا بذلك كأساس لفهمنا للعراق، فإنه سيكون من الأسهل علينا تفسير السياق الذي ساهم بصعود الطائفية والقبلية السياسية بشكلها الحالي في العراق وغير العراق باعتباره جزءًا لا يتجزأ من التحوّل العالمي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة في السياسة والرأسمالية العالمية التي كان تأثيرها على العالم متنوعًا. ترافق مع هذا التحوّل صعودٌ للحركة الدينية في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية، ونموٌّ للحركات اليمينية المحلية، وكذلك، وهذا يحدث الآن في الولايات المتحدة، إعادة تشكيل للنظام السياسي العرقي والإقليمي والذي يمرّ بمنعطف شديد العنف.

لعلّ أكثر ما يجعل منهجية بطاطو مهمة لنا في الحاضر ليس تحليلها الطبقي، وإن كان مهمًّا لنا أن نسترجع قراءة للعراق وعالمنا من منظور طبقي جديد. أهمية منهجيته تكمن في تأريخيته للطبقات وشرحات المكانة في العراق. ولكن بطاطو،

لأنـه لـم يكـن مهتمًّـا بالطائفيـة، لـم يؤرخهـا. وظـنّ أن العشـائريّة التقليديّـة سـائرة إلـى الاندثـار. ولكـن لا الطائفـة ولا العشـيرة مندثـرة فـي العـراق. لقـد كتـب كثيـرون مـن دارسـي العـراق أن هاتيـن الظاهرتيـن الجديدتيـن تمكنتـا علـى نطـاق واسـع فـي ظـل حـروب خاضهـا العـراق مـن هشهشـة الدولـة وصاغتـا ولاءات جديـدة بيـن شـعبها.

ولكـن مـا لا تفسـره هـذه الحقائـق هـو خصوصيـة إعـادة بنـاء وتفعيـل واسـتحداث ولاءات كان جيـلان أو ثلاثـة مـن أهـل العـراق ولا سـيما أهـل مدنـه الكبـرى وعلـى رأسـها بغـداد، يظنـون أنهـا غيـر مهمـة لمفهومهـم للمواطنـة. قـد يوفـر حنـا بطاطـو بعـض الإشـارات، لعـلّ أهمهـا هـو المنهجيـة لدراسـة المُركّـب الاجتماعـي الحالـي لمجموعـة ولاءات غيـر ثابتـة، مرحليـة، مفعّلـة بمصالـح شـتى، ودراسـة طبقـات ووجهـات جديـدة ولـدت فـي غضـون التحـوُّل الاقتصـادي العالمـي، والحـرب الدائمـة فـي المنطقـة منـذ العـام 1948م، ومفاعـلات عـدة أخـرى. بمعنـى آخـر، يمنحنـا بطاطـو آليـة تفسـير بطريقـة مقنعـة، عمليـة، وبعيـدة النظـر، لفهـم ماضـي العـراق الحديـث وحاضـره والخـروج مـن مـأزق اسـتثنائيته.

*** نُشـرت هذه المحاضرة للمرة الأولى في دوريّة عمران في العدد الرابع والعشـرين (ربيـع 2018) بعنـوان «تاريـخ العراق ومجتمعـه بيـن حنّا بطاطو وعلـي الوردي».**

الهوامش:

(1)- Batatu Hanna. 1978. The Old Social Classes and Revolutionary Movements in Iraq. Princeton: Princeton University Press.

(2)- Thompson, E.P. 1966. The Making of the English Working Class. USA. Vintage Books.

(3)- المعلومات عن حياة الوردي في هذا البحث مقتبسة من، سلام شما، مجالس الوردي: الدكتور علي الوردي، مجالسه ومعاركه الفكرية (دمشق: مركز الناقد، 2010)، علي حسين الجابري، علي الوردي: السيرة والآراء (بغداد: بيت الحكمه، 2002)، إبراهيم حيدري، علي الوردي، شخصيته وأفكاره الاجتماعية (كولونيا: دار الجمل، 2006).

(4)- انظر على سبيل المثال سليم علي الوردي، علم الاجتماع بين الموضوعية والوضعية: مناقشة لمنهاج الدكتور علي الوردي لدراسة المجتمع العراقي (بغداد: مطبعة العاني، 1978).

(5)- هذا نقد وجهه الوردي بدءًا بكتابه وعاظ السلاطين: بحث صريح بطبيعة الإنسان من غير نفاق (بغداد: دار المعارف، 1954)، والذي نشره بعد عودته من الولايات المتحدة. كما تطرق له في كثير من كتاباته ومحاضراته ومقابلاته على التلفزيون والراديو حتى آخر حياته.

(6)- الوردي، علي. 1969-1978. لمحات إجتماعية من تاريخ العراق الحديث. 6 أجزاء. بغداد: مطابع عدة.

(7)- هذا ما قاله في مقالة كتبها عند اجتماع باحثين في جامعة تكساس في الذكرى العاشرة لنشر كتابه. انظر Robert Fernea and William Roger Louis, The Iraqi Revolution of 1958: The Old Social Classes Revisited (Great Britain: I.B. Tauris, 1991).

(8)- Moore Jr, Barrington.1993. The Social Origins of Dictatorship and Democracy: Lord and Peasant in the Making of the Modern World. Boston: Beacon Press Reprint.

(9)- انظر Zami Zubaida, “ Community, Class and Minorities in Iraqi Politics,” in The Iraqi Revolution of 1958, 197-210 ، وفالح عبد

الجبار" نظرة في مصادر منهج حنا بطاطو" وأيضًا ماهر الشريف "عودة إلى أبرز القضايا والتساؤلات" ، في سيار الجميل ومازن لطيف، حنا بطاطو، في سيرته ومنهجه وتفسيره لتاريخ العراق المعاصر (بيروت: دار الرافدين، 2015).

(10)- الوردي، علي. 1965. دراسة في طبيعة المجتمع العراقي: محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الأكبر في ضوء علم الاجتماع الحديث. بغداد: مطبعة العاني.

(11)- خصص الوردي جزأين من كتابه لثورة العشرين فكانت دراسته بمثابة تحدٍّ مباشر للتأريخ الثوروي الجديد لثورة العشرين على أنها ثورة شعبية تقدمية. ردّ على هذا التحدي ستار جبر ناصر، هوامش على كتاب علي الوردي "لمحات إجتماعية في تاريخ العراق الحديث"، مجلد 5 (بغداد: 1978).

(12)- الوردي، علي. 1994. الأحلام بين العلم والعقيدة. لندن: دار كوفان.

(13)- الكتب والمؤتمرات عن علي الوردي كثرت بعد سقوط البعث وفي ظل إخفاق المشاريع السياسية التي أعقبت الاحتلال الأميركي. ولكنها نمت أيضًا لوجوب صياغة جديدة لسردية تاريخ العراق. انظر على سبيل المثال إبراهيم الحيدري، شخصية علي الوردي ومنهجه وأفكاره المرجع الذي ذكر سابقًا.

(14)- تمّ إحياء الذكرى المئوية لولادة الوردي في مؤتمر عقد في الجامعة الأميركيّة في بيروت عام 2014 وفد إليه كثيرون من الباحثين الذين يحاولون إحياء ما يسميه بعضهم منهجية علي الوردي. http://www.aub.edu.lb/Events/Pages/EventDetails.aspx?ItemId=504

المحاضرة الثالثة

(تونس العاصمة، تونس 2017)

تأريخ الحزب الشيوعي العراقي:
بين الأكاديمي حنا بطاطو والمناضل السياسي عزيز سباهي



ثابت عبد الجبار عبد الله

وُلد ثابت عبد الجبار عبد الله ونشأ في بغداد في العراق. حاز شهادة دكتوراه في التاريخ في العام 1992 من جامعة جورج تاون في واشنطن العاصمة. يشغل حاليًّا منصب أستاذ ورئيس قسم التاريخ في جامعة يورك في تورونتو، في كندا. وشغل قبل ذلك مناصب أستاذ مساعد ومدير برنامج دراسات الشرق الأوسط في الجامعة الأمريكية في القاهرة (1992 - 1996)، وأستاذ مساعد في التاريخ في جامعة ولاية أوكلاهوما، وعميد مساعد للشؤون الخارجية في جامعة يورك. تشمل اهتماماته الأكاديمية الرئيسية تاريخ العراق الاقتصادي والاجتماعي الحديث في العصور الوسطى والقديمة. إلّا أنّه نشر أيضًا أعمالًا من كتب ومقالات عن العراق الحديث والمعاصر. فضلًا عن مقالاته المنشورة باللغتين الإنجليزية والعربية، تُرجمت كتبه إلى لغات عدة بما فيها الإيطالية والإسبانية والليتوانية والصينية.

في البداية أودّ أن أتقدم بجزيل الشكر الى المجلس العربي للعلوم الاجتماعية والى مديرته الدكتورة ستناي شامي على هذه الدعوة الكريمة لتقديم آخر محاضرة في سلسلة المحاضرات التي قدمت على شرف أستاذي الكبير الدكتور حنا بطاطو. فكرت طويلًا في موضوع علّه يرضي هذا الباحث الجليل لكونه أشرف على أطروحتي، علاوةً على القرابة الخاصة التي كانت تربطنا، وكذلك الأفضال الكثيرة التي قدمها لي. استقررت في نهاية المطاف على مقارنة المنهج الذي سلكه بطاطو في كتابه الشهير عن العراق، وبالأخص الكتاب الثاني منه الذي يتناول تأريخ الحزب الشيوعي العراقي[1]، وبين المنهج الذي سلكه الأستاذ عزيز سباهي في كتابه «عقود من تأريخ الحزب الشيوعي العراقي»[2]. فقد شاء القدر أن أكون على صلة وثيقة بين بطاطو وسباهي.

كان لكتاب حنا بطاطو عن العراق أثره الكبير على المثقفين العراقيين وبالأخص الشيوعيين منهم. روى لي الدكتور حنا أن أكثر ما يفتخر به ويسعده هو كون كتابه، المهدى إلى الشعب العراقي، يوزع بكثرة في العراق رغم منعه من قبل نظام صدام البائد. في أحد الأيام سألني الدكتور حنا عن سبب عدم إقدام الحزب الشيوعي العراقي على تدوين تأريخه من وجهة نظر الحزب كردٍّ على ما طرحه هو؟ بقي هذا السؤال في بالي إلى أن تعرفت بعد سنوات عدة إلى الأستاذ عزيز سباهي، وهو مناضل وكاتب شيوعي قديم، فحدثته عن استفسار بطاطو. أجابني سباهي بأن الحزب كان قد اتخذ قرارًا في العام 1970 بكتابة تأريخه الا أنه لم يستطع البدء بالمشروع بسبب ظروف الشيوعيين الصعبة في العراق وما مروا به من قمع ونفي ومطاردة وإعدامات.

في أواخر التسعينيّات قررت اللجنة المركزية للحزب إسناد مهمة كتابة تأريخ الحزب إلى عزيز سباهي. وبعدما واجه صعوبات جمّة في جمع الوثائق وعقد المقابلات ناهيك عن معاناته الصحية، استطاع سباهي إنجاز الجزء الاول عام 2002 عقبه الجزءان الثاني والثالث في السنوات اللاحقة. وقد أعرب بطاطو عن سعادته بإقدام الحزب على هذه المهمة وللأسف وافاه الأجل عام 2000 قبل إتمام سباهي جزأه الأول.
في اعتقادي إن مجرد طرح مسألة المقارنة بين هذين العملين قد يبدو غير

منصف. فحنا بطاطو الذي ينحدر من جذور فلسطينيّة تعرف إلى العراق، بشكل رئيسي، من خلال دراسته الأكاديمية العالية، حيث أكمل دراسته الابتدائية والثانوية في القدس في مدارس أهلية مرموقة. ثم غادر فلسطين بعد نكبة 1948 وأكمل دراسته في الولايات المتحدة في جامعة جورج تاون ثم الدكتوراه في جامعة هارفرد. وبفضل علاقاته مع أشخاص من حركة القوميين العرب، فُتِحت أمامه العديد من سجلات الأمن العراقية في الستينيّات والتي بفضلها استطاع أن يجمع معلومات وافرة حول الحزب الشيوعي العراقي بما في ذلك معلومات عن خلفية أعضائه. نرى أثر هذه الثقافة الأكاديمية وفرص البحث التي أُتيحت له واضحة في صفحات كتابه فنجده مليئًا بالجداول الدقيقة والمناقشات العميقة التي تسترشد بنظريات مفكرين أمثال ماركس وفيبر وجيمز ماديسون.

مؤلَّف سباهي غنيٌّ بالمعلومات مكتوب بأسلوب صحافي من قبل شخص عاصر وساهم في الكثير من الأحداث الواردة في الكتاب نفسه. فحياته تبدو معاكسة تمامًا لحياة بطاطو. ولد سباهي عام 1925 في مدينة قلعة صالح في جنوب العراق لعائلة من الأقلية المندائية[3]. وقد مرّت عليه سنوات عانى مع عائلته من فقر حادّ كاد أن يصل الى حدّ المجاعة أحيانًا. دراسته الابتدائية تمت في مدارس حكومية متواضعة جدًّا لكنه، رغم ذلك، استطاع أن يتخرج من دار المعلمين الابتدائية وعمل لفترة كمعلّم. في العام 1945 انضم الى صفوف الحزب الشيوعي العراقي وبرز أولًا في العمل الطالبي ثم انتقل الى العمل الثقافي. وفي العام 1948 وعلى أثر نشاطه في الانتفاضة الثورية التي قادها الحزب الشيوعي المعروفة بـ «الوثبة»، تم القبض على سباهي وهو في الرابعة والعشرين من عمره ولم يخرج من السجن حتى العام 1958. ومن ثم حكم عليه ثانية في العام 1961 ليخرج بعدها في العام 1967 وهو في الثالثة والأربعين من عمره. قضى سباهي أكثر من سبعة عشر عامًا من حياته في السجون والنفي الداخلي. وبسبب تلك الظروف اضطر سباهي إلى أن يكوّن معظم ثقافته من جهوده وتعليمه الذاتي. وقبل أن يقدم على تأليف «عقود من تأريخ الحزب الشيوعي العراقي»، والذي نحن في صدده هنا، عمل سباهي في الصحافة العراقية والعربية ونشر عددًا من الدراسات بأسماء مستعارة تناولت بحوثًا اقتصادية واجتماعية وسياسية مختلفة من بينها دراسات حول المسألة الزراعية وتأريخ الطبقة العاملة ومشاكل السكن.

عندما ننظر الى كتاب سباهي لا نجد فيه تلك الجداول الأنيقة ولا الاسترشاد بأحدث نظريات التأريخ، بل كما ذكرت سابقًا، مؤلّفه يغلب عليه أسلوب البحث الصحافي. هذا بالطبع لا يقلّل من أهميته كمساهمة جادة في فهم دور الحزب الشيوعي في تأريخ العراق الحديث. فسباهي، كما ذكرنا، كان معاشرًا ومساهمًا في الكثير من الأحداث ، وفي كتابه يجد القارىء العديد من التفاصيل الغائبة والناقصة من كتاب بطاطو. على سبيل المثال نذكر وصفه للعمل الحزبي داخل السجون والذي ساهم فيه سباهي مباشرةً، أو العمل في الريف أو أحداث معينة مثل مؤتمر السباع عام 1948 والذي انبثق منه تأسيس الاتحاد العام لطلبة العراق، حيث كان سباهي من الذين نظموا هذا المؤتمر. هذا إضافة الى أن سباهي يثير الشك أحيانًا في دقة معلومات بطاطو التي كثيرًا ما اعتمدت على ملفات ووثائق مديرية الأمن العراقية حيث سباهي يعلم جيدًا كيف أُخذت تلك المعلومات من خلال «حفلات التعذيب» على حدّ وصفه، وبالتالي لا يمكن الاعتماد عليها تمامًا.

لكن ما يهمنا في هذه المداخلة هو منهج كلّ من بطاطو وسباهي في كتابة تأريخ الحزب الشيوعي العراقي، وبالأخص مسألة العامل الرئيسي أو المحرك الأساسي في الأحداث التاريخية. بشكل عام، نجد أسلوبين مختلفين. فعادةً يباشر بطاطو، (خصوصًا في كتابه الثاني)، بالسرد التاريخي حيث يصف الأحداث والشخصيات بدقة متناهية ثم يتبع ذلك بمناقشة الصلة بين هذه الحوادث وبين التطورات الاجتماعية والاقتصادية العامة. أي أنه يبدأ من الخاص ثم يربطه بالعام. أو بتعبير آخر يحاول فهم الصراعات الحزبية والقرارات الفردية على أنها جزء أو تعبير عن الظروف الموضوعية العامة. إذًا، الهمّ الرئيسي عند بطاطو هو دراسة كيف فرضت الظروف الموضوعية للمجتمع العراقي في مرحلة معينة حدودًا على العوامل الذاتية للحزب الشيوعي.

أما كتاب سباهي فعادةً ما يسلك منهجًا معاكسًا تمامًا. فهو يبدأ من المعطيات العامة (الاقتصادية والاجتماعية والسياسية)، ثم ينتقل ليصف الوقائع التاريخية للحزب الشيوعي في ظلّ هذه المعطيات. أي أنه ينتقل من العام الى الخاص. وهمّه الأساسي أن يتفهّم كيف حاول الحزب من خلال ظروفه الذاتية أن يدفع الحدود الموضوعية المفروضة عليه الى أقصى ما يمكن باتجاه التغيير

الإيجابـي. لا خـلاف هنـا بيـن الباحثيـن علـى أولويـة الظـروف الموضوعيـة فـي تحديـد الحركـة التاريخيـة العامـة. فكلاهمـا يسـلك المنهـج الماركسـي الـذي يؤكـد أهميـة الظـروف الموضوعيـة. ففـي مقدمـة كتابـه يقـرّ سـباهي بـأن إمكانيـة التغييـر محـدودة بالواقـع الاجتماعـي[4]. إلا أن الخـلاف هنـا حـول التركيـز. فبطاطـو دائمًـا يعـود ليؤكـد التطـور الاجتماعـي العـام بينمـا يقـوم سـباهي بالتركيـز علـى دور الظـروف الذاتيـة للحـزب.

لننظر الآن الى أمثلة معينة:

فـي القسـمين الأول والثانـي مـن الجـزء الثانـي مـن كتابـه عـن العـراق، يقـوم بطاطـو بشـرح مفصّـل عـن حيثيـات دخـول الأفـكار الماركسـية وتأسـيس الحـزب الشـيوعي عـام 1934. ثـم يخصّـص قسـمًا بأكملـه (الثالـث) لمناقشـة أسـباب انتشـار الفكـر الشـيوعي ونجـاح تنظيـم الحـزب فـي فتـرة الأربعينيّـات والخمسـينيّات. هنـا يعـود بطاطـو الـى مسـألة التطـور الاجتماعـي العـام حيـث يؤكـد أن العـراق كان يمـرّ بتحـولات هائلـة مـن مجتمـع ريفـي تطغـى عليـه العلاقـات العشـائرية الـى مجتمـع تسـود فيـه العلاقـات الرأسـمالية المتمركـزة فـي المـدن الكبـرى. إن التحطـم العنيـف للعلاقـات العشـائرية التقليديـة علـى أيـدي السـلطة المركزيـة مـن ناحيـة وتغلغـل الاسـتعمار البريطانـي مـن ناحيـة ثانيـة جعـلا مـن العـراق تربـة خصبـة للحـركات المناهضـة للسـلطة والاسـتعمار. والشـيوعية فـي ذلـك الحيـن كانـت، حسـب تعبيـر بطاطـو، «المنجنيـق الايديولوجـي الضـارب ضـد السـلطة القائمـة»[5]. هـذا التحـول فـرز حـالات اجتماعيـة اعتبرهـا بطاطـو «وكأنهـا لهـاث عالـم قبلـي يقتـرب مـن نهايتـه.»[6] ومـن بيـن ذاك «اللهـاث» الانتفاضـات العشـائرية والهجـرة الضخمـة مـن الريـف الـى المدينـة واغتصـاب المشـايخ لأراضـي الفلاحيـن وبـروز هـوّة طبقيـة واسـعة جـدًّا بيـن الأغلبيـة السـاحقة التـي تعانـي مـن الفقـر الشـديد وشـريحة ضيقـة مـن الأثريـاء. وإذا مـا أضفنـا إلـى هـذا صعـود الاتحـاد السـوفياتي وانتصـار الثـورة الصينيـة بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة، فـكل ذلـك جعـل مـن العـراق تربـة خصبـة لنمـو الشـيوعية.

لا يعـارض سـباهي أي شـيء ممـا ذكـره بطاطـو فـي هـذا الصـدد، بـل يؤكـد هـذا كلّـه ويضيـف إليـه فـي ثلاثـة فصـول يتنـاول فيهـا الظـروف العامـة فـي المنطقـة قبـل أن يبـدأ بسـرد الأحـداث المؤديـة الـى تأسـيس الحـزب الشـيوعي. إلا أنـه بعـد أن ينتهـي مـن شـرح تلـك الحـوادث لا يعـود الـى الظـروف الموضوعيـة لبحـث أسـباب

انتشـار الأفـكار الشـيوعية بـل يفضّـل تسـليط الأضـواء علـى الظـروف الذاتيـة. فيذكـر مثـلاً إصـرار الشـيوعيين الأوائـل (وعلـى رأسـهم يوسـف سـلمان يوسـف المعـروف بالرفيـق فهـد) علـى ربـط العـداء للاسـتعمار بالنضـال مـن أجـل حقـوق الكادحيـن خصوصًـا العمـال. فبالنسـبة إلـى سـباهي كان إصـرار الشـيوعيين علـى العمـل مـن أجـل تأسـيس النقابـات العماليـة والجمعيـات الفلاحيـة فـي زمـن كانـت تلـك الطبقـات مهملـة مـن قبـل السياسـيين هـو السـبب المباشـر لانتشـار الشـيوعية. يضيـف الـى ذلـك أن المؤسسـين الأوائـل أعـاروا اهتمامًـا بالغًـا بالصحافـة والنشـر وأحسـنوا الجمـع بيـن العمـل السـري والعلنـي حيـث نجحـوا فـي التعـاون مـع بعـض الصحـف العلنيـة والاسـتفادة منهـا. وأخيـرًا، اهتـم المؤسسـون بالسـعي لبنـاء جبهـة شـعبية واسـعة ضـد الاسـتعمار.

كذلـك نـرى الاختـلاف فـي المنهـج الـذي يسـلكه كلٌّ مـن الكاتبيـن فـي مناقشـة المعضـلات التـي واجهـت نهـوض الشـيوعية فـي العـراق. فبطاطـو مثـلاً يؤكـد عمـق التحزّبـات العشـائرية والعقليـة الدينيـة التـي أعاقـت عمـل الشـيوعيين الأوائـل. فـي حيـن يركّـز سـباهي علـى بعـض المواقـف والقـرارات التـي أضـرّت بالحـزب مثـل مسـاندة انقـلاب بكـر صدقـي العسـكري عـام 1936.

نجـد المفارقـة ذاتهـا عندمـا نقـارن كيـف عالـج كل مـن بطاطـو وسـباهي أحـداث الانتفاضـة الشـعبية الكبـرى عام 1948 المعروفـة بـ«الوثبة». فبعـد أن ينتهي بطاطو مـن سـرد الأحـداث بشـكل دقيـق للغايـة عـن دور الحـزب القيـادي فـي الوثبـة، يعـود بنـا الـى مسـألة العوامـل الاجتماعيـة العامـة وذلـك فـي فصـل مخصّـص لشـرح بنيـة الحـزب الاجتماعيـة.[7] ففـي هـذا الفصـل نجـد العديـد مـن الجـداول والإحصـاءات بخصـوص الخلفيـة المهنيـة لأعضـاء الحـزب حسـبما وردت فـي سـجلات الأمـن. ويسـتنتج بطاطـو أن الحـزب «كان يعتمـد أساسًـا علـى تحالـف عناصـر مـن العمـال والجنـود وانتلجنسـيا الطبقـة الوسـطى والوسـطى الدنيـا»[8] المتضـررة أكثـر مـن غيرهـا مـن سياسـات النظـام الملكـي المسـنود مـن الاسـتعمار البريطانـي. ثم يناقـش التوزيـع الطائفـي فـي عضويـة الحـزب فيلاحـظ مثـلًا وجـود نسـب عاليـة مـن الأعضـاء الأكـراد يفسـرها بظاهـرة إحبـاط حقوقهـم القوميـة، ويفسـر أيضًـا وجـود نسـبة عاليـة مـن السـنّة العـرب فـي قيـادة الحـزب بكونـه تعبيـرًا عـن دور هـذه الطائفـة القيـادي فـي المجتمـع العراقـي عمومًـا. أي أن بطاطـو ينهـي دراسـته عن

الحزب الشيوعي في فترة الوثبة بتسليط الأضواء على الظروف الاجتماعية العامة وانعكاساتها داخل تنظيم الحزب.
يتحفظ سباهي كثيرًا على معلومات بطاطو بخصوص التركيبة الاجتماعية للحزب حيث يؤكد أن سجلات الأمن (مصدر بطاطو الرئيسي) لا تعبر بشكل دقيق عن طبيعة أعضاء الحزب لأنها مستمدة من الذين ألقي عليهم القبض في التظاهرات بشكل خاص وهذا، حسب تقدير سباهي، ما يفسر شحّ نسبة الفلاحين مقارنة بسكان المدينة في أرقام بطاطو. لكن ما يخص سباهي أكثر عند تناوله موضوع الوثبة هو القرارات والتوجيهات التي اتخذها الحزب في ذلك المنعطف التاريخي. فبالنسبة إلى سباهي كان نجاح الشيوعيين في إدارة الوثبة وإسقاط مشروع معاهدة بورتسموث ومعها حكومة صالح جبر يعود الى إتقان الحزب فنّ التحالفات الواسعة (على سبيل المثال في تشكيل لجنة التعاون الوطني) والإصرار الجريء على هدفين واضحين هما إلغاء المعاهدة وإسقاط الحكومة. ومن ثم ربط هذين الهدفين بشعار جماهيري هو النضال من أجل تأمين الخبز والحرية. أخيرًا، يضيف سباهي أنّ رغم نجاح الوثبة فقد أضاعت قيادة الحزب فرصًا ثمينة في إحراز تقدم أكبر بسبب انشغال عناصر قيادية في نزاعات شخصية مثل النزاع بين مالك سيف ويهودا صديق. وينتقد سباهي حتى رئيس الحزب الأسطوري، فهد، بسبب عدم انتهاز الفرصة التي أتاحتها الوثبة لعقد مؤتمر او كونفرنس لحسم مشاكل القيادة وتقييم ما حصل في الوثبة وتعزيز العلاقة مع القاعدة الحزبية.

مرة أخرى إذًا، نرى كيف يكون تركيز بطاطو على أهمية الظروف الموضوعية بينما همّ سباهي الرئيسي هو فهم الظروف الذاتية للحزب ودورها في دفع عجلة التأريخ.

وعند معالجة انقلاب 8 شباط 1963 نرى بطاطو يعود ليطرح مسألة الواقع الاجتماعي. فيؤكد دور الطبقات الوسطى الريفية خصوصًا تلك التي كانت موجودة في منطقة ما يسمى بالمثلث السني. حيث كانت تطمح إلى إنهاء احتكار الملاكين الكبار لكنها في الوقت ذاته تخشى نفوذ الجماهير الكادحة. وهذا، حسب تقدير بطاطو، ما يفسر دور هذه الطبقة ضمن تنظيم الضباط الأحرار، ودعمها لمشروع الإصلاح الزراعي بعد ثورة 14 تموز التي قضت

على هيمنة الملاكين الكبار إلا أنها عادت لتضرب ألَدّ أعداء الإقطاع، الحزب الشيوعي، بعنف شديد في انقلاب 8 شباط البعثي. وفي ملاحظة ثانية يضيف بطاطو أن الأماكن التي صمد فيها الشيوعيون وقاتلوا لفترة طويلة ضد الانقلاب كانت جميعها مناطق شيعية (الثورة، الشوّاكة، الكريمات، الشاكريّة، الكاظميّة، عكد الأكراد) هذا رغم كون قيادة الحزب تضمّ نسبة عالية من السنّة. يفسر بطاطو هذه الظاهرة بتعاطف السنّة مع الأفكار القومية العربية والتحفظ عليها من قبل الشيعة. وهذا طبعًا دليلٌ على استمرار بعض التكتلات والنعرات الطائفية الموروثة من المجتمع العشائري.

كما هي الحال في الأمثلة السابقة، يقوم سباهي عند تناوله موضوع ضرب الحزب الشيوعي عام 1963 بالتركيز على العوامل الذاتية التي سمحت بهذه الهزيمة الموجعة. فمن ضمن ما يناقشه هنا، قيام قيادة الحزب بإضاعة الوقت في الدفاع عن حكومة عبد الكريم قاسم في حين كانت تلك الحكومة تقوم بالتنكيل بهم واضطهادهم. ويضيف أن الحزب كان قد بُلّغ باستعدادات اليمين السياسي للانقلاب إلا أن التقاعس والعجز هيمنا على الكادر الحزبي بحيث إنه «لا يلمس اهتمامًا خاصًا بإعداد القوى للمواجهة.»[9]

ويضيف سباهي على سبيل المثال أن قيادة الحزب عقدت أربعة اجتماعات في غضون أسبوع واحد قبل الانقلاب لمناقشة مسألة إضراب الطلبة من دون أن تعقد «اجتماعًا واحدًا لمناقشة قدراتها الفعلية على الردّ لما كان يدبر.»[10] ورغم مناقشة المكتب السياسي لفكرة وضع خطة طوارئ تتضمن إنشاء مفارز سرية يقوم بتفعيلها في حال الانقلاب، الا أن ذلك لم يحصل. ويتطرق سباهي لحادثة حصلت قبل يوم واحد من الانقلاب يمكن أن نستشهد بها كمثال على أسلوبه في التركيز على الدور المهم التي تؤديه العوامل الذاتية في حركة التأريخ: «في يوم 7 شباط 1963 بادرت إحدى صديقات الحزب الشيوعي الى إخبار الحزب بأن موعد الانقلاب سيكون في اليوم التالي، أي في 8 شباط، بعدما علمت ذلك من عشيق لها، عسكري قومي يسهم في الإعداد له. إلا أن هذا الخبر لم يصل إلى جمال الحيدري الذي كان يقود الحزب عمليًّا إلا في مساء السابع من شباط. (وكان سلام عادل، سكرتير الحزب، قد تفرغ عن العمل القيادي بقرار سابق من المكتب السياسي للانصراف الى وضع برنامج

الحزب – تأمل سكرتير الحزب يتفرغ عن العمل القيادي في ظروف كهذه بالذات...!!). وبدوره، أبلغ جمال الحيدري لجنة بغداد بالخبر، وطلب منها أن تتخذ الإجراءات اللازمة للمقاومة... إن الخبر لم يصل الى سلام عادل إلا في منتصف الليل فقط. فذهب الى دار جورج تلّو، عضو المكتب الساسي، ومسؤول الخط العسكري، وأخبره بالأمر، وشدد عليه بصورة خاصة... ضرورة إبلاغ العقيد الركن جلال الأوقاتي،[11] بمغادرة الدار التي يسكنها والمبيت في بيت آخر... ولكن، وما أقسى هذه (الـ"لكن")، إن سيارة جورج تلّو لم تشتغل في تلك الليلة لشدة البرد ساعتها... وكأن تلفونات بغداد قد تعطلت تلك الليلة... وكأن مكاتب سيارات الأجرة قد خلت من سياراتها كلها... وكأن الباصات قد تعطلت... وكأنّ الأرجل كفّت هي الأخرى عن المشي للوصول الى بيت أقرب رفيق أو صديق... ويظل من مهمة القارئ أن يستنتج بأيّ استعداد وهمّة جرت مواجهة هذا الانقلاب!!»[12]

فهل كان تغير تاريخ العراق وتاريخ الحزب الشيوعي بالذات لو اشتغلت سيارة جورج تلّو أو لو أبدى اهتمامًا أكبر بالمهمة؟

هذه الحادثة التي يرويها سباهي تعود بنا الى المناظرة التي نشأت في منتصف القرن التاسع عشر حول دور الفرد في التاريخ والعلاقة الجدلية بين الضرورة والصدف. وممن كتبوا حول هذه المسألة، لم أجد أفضل مما كتبه المؤرخ البريطاني إدوارد كار ضمن سلسلة محاضراته التي نشرت بعنوان «ما هو التاريخ؟»[13] فيقول كار إن الإجابة عن هذا السؤال مرتبط بهدف المؤرخ ذاته. فعلينا أولًا الاستفسار عن هدف المؤرخ من تناوله موضوعًا ما.

فهدف بطاطو هو فهم حيثيات التحول الاجتماعي في العراق من مجتمع ريفي تسود فيه العلاقات العشائرية وتهيمن عليه طبقات اجتماعية منتفعة من هذا النمط من الحياة، الى مجتمع مرتبط بدولة مركزية تستند إلى قوة المدينة وعلاقات رأسمالية حديثة، وانعكاسات كلّ ذلك على التطورات السياسية. وكان اهتمام بطاطو هذا أوسع من الحزب الشيوعي أو حتى العراق. فقد تبع كتابه عن العراق كتابٌ عن سوريا حيث سلك فيه المنهج ذاته في مناقشة طبيعة التغيرات السياسية في سوريا. وكذلك قام ببحث موجز قارن فيه ظاهرة الثورات في العراق وسوريا ومصر. وكان ينوي كتابة عمل عن تاريخ

فلسطين إلا أنه، وللأسف الكبير، لم يباشر به قبل وفاته. أما سباهي، فهدفه من كتابة تاريخ الحزب الشيوعي هو استخلاص الدروس والعبر من نضالات الحزب كي تبقى دليلًا للأجيال القادمة من المناضلين. ولهذا السبب، همّه الأساسي هو أن يظهر ما كان نافعًا أو ضارًّا في قرارات وتصرفات الحزب.

أعتقد أن هذا واضح ولكن دعوني الآن أطرح مسألة قد تبدو أقل وضوحًا: هل من الممكن الاستفادة من هذين المنهجين في فهم ما يدور في العراق الحزين حاليًّا، أو على الأقل ما جرى للحزب الشيوعي العراقي بعد الاحتلال الأميركي عام 2003؟

من دون شك، كان الحزب الشيوعي العراقي، بغض النظر عن إيجابياته وسلبياته، أكبر وأنشط حزب سياسي عراقي في فترة الخمسينيّات والستينيّات من دون منافس على الإطلاق. وكان الحزب الوحيد الذي نجح في نشر نفوذه في مختلف أنحاء البلد من أقصى شماله الى جنوبه وبين مختلف طوائف الشعب المتعددة وطبقاته الاجتماعية. وكان يحمل عقيدة واضحة (أيضًا بغض النظر عن مدى صحتها) ولأعضائه سمعة في كونهم يمتازون بالجرأة والشجاعة في النضال من أجل عقيدتهم رغم القمع والاضطهاد المتواصل. ففي العام 1959 مثلًا، وصلت شعبية الحزب الى حدّ كان من المحتمل أن يفوز في انتخابات عامة لو تم عقدها. فما الذي جرى للحزب في الساحة العراقية بعد 2003؟ في انتخابات 2005، حصلت قائمة الحزب الشيوعي العراقي (قائمة اتحاد الشعب) على أقلّ من 1% من الأصوات فقط[14]، أما الآن فليس له تأثيرٌ كبيرٌ في الساحة السياسية. كيف نفسر هذا الانحدار الحاد في شعبية ونفوذ الحزب الشيوعي العراقي؟

لو أخذنا بأسلوب بطاطو، لوجدنا أن الجواب يكمن في التغيرات الاجتماعية الضخمة التي مرّ بها العراق منذ استلام حزب البعث السلطة بين 1963-1968، وأهمها: نشوء دولة شمولية استخدمت احتكارها لثروات النفط في بناء أجهزة قمعية قوية ولشراء الولاء أو الرضى. تبعت ذلك دكتاتورية صدام حسين (1979-2003) التي أدخلت العراق في ثلاث حروب من أعنف الحروب وأكثرها دمارًا في تاريخ القرن العشرين على الإطلاق، تلاها الحصار الاقتصادي (1990-2003) الذي فرضته

الولايات المتحدة الأميركية الذي دمّر البنية التحتية وقضى على الطبقة الوسطى. و«الشعرة التي قصمت ضهر البعير» كانت في الاحتلال الأميركي الذي ألغى أهم مؤسسات الدولة من دون السماح بإنشاء مؤسسات بديلة. كلّ ذلك أدى الى تمزيق الرابط والعلاقات (خصوصًا الأفقية الوطنية منها) وشرذمة المجتمع بحيث أُجبر الفرد العراقي على أن يلتجئ الى علاقاته المحلية والعائلية. وكان انعكاس هذا سياسيًّا في نمو الحركات الطائفية على حساب الأحزاب الوطنية مثل الحزب الشيوعي.

منهج سباهي لن يعارض كل هذا ولكنه يذهب ليتساءل عن سلوك الحزب في ظل هذه المعطيات الصعبة. هل كان بالإمكان اتخاذ مواقف غير تلك التي اتُّخذت بحيث يصل الى نتيجة أفضل؟ لو تابعنا مواقف الحزب بعد غزو العراق للكويت عام 1990 ونشوب العداء بين نظام صدام حسين والولايات المتحدة، نجد أن المواقف يشوبها التردد والغموض. فأيديولوجية الحزب كانت دائمًا معادية بشكل حادّ للإمبريالية الأميركية وعلاقتها بالفاشية المحلية. فأدبيات الحزب مثلًا، دومًا تردد (عن حق) دور المخابرات الأميركية في دعم انقلاب 8 شباط 1963 البعثي من أجل ضرب الشيوعية وكذلك دعم أميركا لصدام خلال حربه مع إيران (1980-1988). أما بعد غزو العراق للكويت، فنرى أدبيات الحزب تقلل من مهاجمة «المشروع الامبريالي». وبعد الاحتلال الأميركي عام 2003، قررت قيادة الحزب التعاون المباشر مع حكومة الاحتلال بقيادة بول برمر عندما دخلت كطرف مباشر في مجلس الحكم الذي شكّله الأميركيون. طبعًا الحزب كانت له تبريراته ولكن، من دون أن ندخل في تفاصيل تلك الفترة المعقدة، أصبح واضحًا أنّ هذه المواقف لم تدرّ على الحزب بأي فائدة بل على العكس ساهمت في إبعاده عن جماهيره التقليديين حيث إن الطبقات الدنيا عانت (وما زالت تعاني) الكثير من السياسات والمشاريع الأميركية ناهيك عن الارتباك الفكري لكوادر الحزب الناتج من التحالف مع قوة كان الحزب دومًا يؤكد عداءه المبدئي لها.

ختاماً أود أن أعود الى الدكتور حنا. ففي العام 1990، وبعد احتلال العراق للكويت وقد انقلبت الدنيا حينها رأسًا على عقب، تحولت جامعة جورج تاون إلى مسرح يعجّ بالنشاطات والندوات كلّها تحاول معالجة هذا الجانب أو ذاك

من الأزمة. وفي أحد هذه الأيام رافقتُ الدكتور حنا لحضور ندوة حول الأزمة وكان المحاضر يتحدّث عما يمكن أن تفعله الولايات المتحدة لحل المشكلة. كان الدكتور حنا متوترًا بسبب حبّه للعراق وخشيته من تداعيات الحدث على المنطقة بأسرها. وفي منتصف المحاضرة التفت إليّ مبتسمًا وقال: «كيف ممكن لأميركا أن تحلّ المشكلة إذا أميركا هيّ المشكلة؟»

وحول هذه النقطة بالذات، لا فرق بين بطاطو وسباهي.

الهوامش:

(1)- بطاطو، حنا. 1992. العراق، الكتاب الثاني: الحزب الشيوعي. ترجمة عفيف الرزاز. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.
(2)- سباهي، عزيز. 2002، 2003، 2005. عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي. ثلاثة أجزاء. دمشق وبغداد.
(3)- حول حياة وأعمال سباهي راجع مقالاتنا الآتية:
Thabit A.J. Abdullah, “In Memoriam”, International Journal of Contemporary Iraqi Studies, vol.10 no.3, Sep. 2016, pp.193-7; & “Editor’s Introduction”, International Journal of Contemporary Iraqi Studies: Special Issue in Honour of the Iraqi Journalist and Author Aziz Sbahi, vol.12 no.2, Jun. 2018, pp.95-9.
(4)- سباهي، الجزء الاول، ص13.
(5)- بطاطو، ص123.
(6)- بطاطو، ص123.
(7)- بطاطو، الفصل السابع عشر.
(8)- بطاطو، ص 304.
(9)- سباهي، الجزء الثاني، ص531.
(10)- سباهي، الجزء الثاني، ص531.
(11)- كان جلال الأوقاتي من المقربين للحزب الشيوعي العراقي وشغل منصب قائد القوات الجوية العراقية من عام 1958 الى 1963. قتله البعثيون أمام بيته قبل المباشرة بعملية الانقلاب على السلطة صبيحة 8 شباط عام 1963.
(12)- سباهي، الجزء الثاني، ص533.
(13)- Carr, Edward H. 1961. What is History?, Vintage Books, NY, chapter iv
(14)- Inter-Parliamentary Union, 2005, http://archive.ipu.org/parline-e/reports/arc/2151_05.htm

تعقيب نقدي (ملخّص)

الغرام بحنّا بطاطو



حيدر سعيد

باحث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ورئيس تحرير مجلة سياسات عربية. حاصل على شهادة الدكتوراه في اللسانيات من الجامعة المستنصرية في بغداد سنة 2001 عن أطروحته: «الأسس المعرفية للنظرية اللسانية العربية: بحث في الأصول». أسهم في تأليف وتحرير التقرير الوطني لحال التنمية البشرية في العراق، لسنتي 2008 و2014. صدر له كتاب الشيعة العرب: الهوية والمواطنة (2019/ تحرير)، وسياسة الرمز: عن نهاية ثقافة الدولة الوطنية في العراق (2009)، والأدب وتمثيل العالم (2002). أشرف على فريق بحث أنجز دراسة عن حال العلوم الاجتماعية في الجامعات العراقية صدرت سنة 2008.

ليس يسيرًا أن تفهم سرَّ هذا الحضور الكبير الذي حقّقه المؤرخ الأميركي الفلسطيني الأصل، حنا بطاطو (1926-2000)، في الدراسات المعاصرة عن مجتمعات المشرق العربي الحديث. أقول: ليس يسيرًا، لأن حضوره بدا لكثيرين غير طبيعي، فمن أين جاء هذا الحضور لمؤرخ وضع عددًا محدودًا جدًا من الأعمال، وفيها عمل مركزي أساسيّ واحد؟ وهذه الأعمالُ ليست أعمالًا نظرية عامة، تعطي لواضعها مكانةً فريدة، كبعض المنظّرين الذين أطلقوا نظرية عامة من خلال كتاب واحد فقط، عُدّ مفتتحًا لحقبة علمية جديدة. ويحضرني، هنا، مثالُ اللساني السويسري فردينان دي سوسور (1857-1913)، الذي عُدّ أبا اللسانيات الحديثة من خلال كتاب واحد فقط[1].

عملُ بطاطو هو تأريخ تطبيقي لمنطقة محددة، وليس فيه (ولا لدى صاحبه

ادعـاء بـأن تأريخـه يحمـل فـي باطنـه نظريـة عامـة، أو نموذجًـا قابـلًا للاسـتعارة والتطبيـق وإعـادة الإنتـاج.

وفـوق ذلـك، يأتـي بطاطـو مـن حقـل محـدّد، هـو التأريـخ. ومـع أن عملـه فتـح، بشـكل فريـد وفذّ، جسـورًا مـع السوسـيولوجيا والاقتصـاد السياسـي والسوسـيولوجيا السياسـية، فـي وقـت لـم تكـن فيـه فكـرةُ تنافـذ المعـارف فـي مـا بينهـا (inter-disciplinarity) حاضـرةً فـي مسـرح العلـوم الاجتماعيـة والإنسـانية، كمـا هـي اليـوم، لا يبـدو طبيعيًّـا - مـع ذلـك - الحضـور الـذي حقّقـه بيـن باحثـي الاقتصـاد والسوسـيولوجيا والعلـوم السياسـية، والتاريـخ طبعًـا، بـل حتـى بيـن الأنثروبولوجيين ودارسـي الثقافـة.

يفتتـح السوسـيولوجي الفلسـطيني سـليم تمـاري ورقتـه المعنونـة بـ «يـوم عصيـب فـي جبـل النـار: حكايـات الثـورة والثـورة المضـادة فـي نابلـس» بإعـلان أنـه يسـتلهم منهجيـة بطاطـو فـي دراسـة التاريـخ الحديـث للعـراق وسـوريا، فـي دراسـة تاريـخ فلسـطين ومعالجـة مقطـع محـدد منـه، وهـو أثـر الثـورة الدسـتورية سـنة 1908 فـي الصـراع المحلـي بيـن القـوى الاجتماعيـة، فـي مدينـة نابلـس تحديـدًا.
وفـي الحقيقـة، يذهـب تمـاري إلـى نقطـة أبعـد ممّـا كان بطاطـو يسـعى إليـه، فهـو يـدرس التمثـلات، أو التصـورات، كمـا تكشـفها ثلاثـة نصـوص أرّخـت لفلسـطين ونابلـس فـي خـلال مرحلـة الثـورة الدسـتورية، بمعنـى أنـه - إلـى حـد مـا - لا يعـدّ هـذه النصـوصَ مجـردَ وثائـق تكشـف عـن «حقائـق»، بقـدر مـا أنهـا تعبيـر عـن الكيفيـة التـي يتصـور بهـا كاتبـو هـذه النصـوص التاريـخَ ومواقفهـم منـه. وانهماكُـه بـ «التمثـلات» يظهـر مـن العنـوان، الـذي يسـميه «حكايـات»، ويسـتمر بوضـوح داخـل النـص، حيـن يتحـدث عـن «سـرديات» و«روايـات» ومـا إلـى ذلـك مـن تعبيـرات تشـي بـأن قائلهـا لا يتعامـل مـع التاريـخ بوصفـه «حقائـق».

وبـلا شـك، يسـتند تمـاري، هنـا، إلـى التحـول الـذي شـهدته العلـوم الاجتماعيـة، مـع صعـود فكـرة «المتخيـلات الاجتماعيـة»[2]. وهـو تحـول لاحـق للأطـر النظريـة التـي عمـل عليهـا بطاطـو.

وأكثـر مـن ذلـك، يعمـل تمـاري في حقـل غير الحقـل الذي عمل فيـه بطاطـو (التأريخ)،

فعملُ تماري يندرج في «تأريخ التأريخ»، أكثر من التأريخ، إذ يقوم على قراءة وتحليل ثلاث مدوّنات تاريخية عن فلسطين ونابلس في سياق الثورة الدستورية، ويضع تصنيفات ميتا-تأريخية، أي إنه لا يفرط بتصنيف هذه المدونات في إطار المدارس التاريخية، فيضع إحسان النمر (1905-1985) ضمن مدرسة الحوليات، يقول: «كتاباتُه [...] يمكن أن تُصنَّف ضمن إطار تراث مدرسة الحوليات للتفسير التاريخي، بحيث يمكن اعتباره ملتزمًا بها ربما من دون قصد منه».

ثم ينتقد تماري النمرَ انتقادًا ذا طابع منهجي، فيشخص ضعف كتابه حين يتناول مرحلة ما بعد التنظيمات، وهو ضعف مركب، في نظر تماري، فمن جهة، اعتمد المؤلف على ذاكرته الشخصية وعلى روايات الفاعلين المحليين، أكثر من اعتماده على الوثائق والسجلات، ومن جهة أخرى، لم يستطع الإفادة من عنصر القوة في روايات الفاعلين المحليين، فعجز عن أن يكتشف المضمونَ الاجتماعي للصراعات والنزاعات التي كانوا يتحدثون عنها، فبدت في كتابه كأنها مجرد شجارات عائلية.

وعلى وجه التدقيق، ما يحاوله تماري هو الآتي: إعادة تفسير وتركيب الوقائع التاريخية، كما ترد في هذه المدونات الثلاث، على وفق منهجية بطاطو. في النص أدناه، يتحدث تماري عن أعمال النمر، وبلغة بطاطوية، فيقول: «الكثير من كتاباته [...] تناول الصراعَ الثالوثي في عهد (التنظيمات) بين الحكومة المركزية العثمانية، من جهة، و(شيوخ النواحي) الذين كانوا يتحكّمون بجباية الريع الزراعي [...] من جهة أخرى، والأرستقراطية المدينية لنابلس [...] من جهة ثالثة».

ويفعل الشيء نفسه مع محمد عزة دروزة (1887-1984)، الذي يقول عنه إنه واع بالقوة الاجتماعية المحرّكة للصراعات القائمة. ومع ذلك، يعيد تماري صياغةَ الإشكالية التي يدور عليها كتاب دروزة بلغة بطاطوية، فيقول: «سعى دروزة إلى معرفة خلفيات الصراع الاجتماعي النابلسي في التشكيلات الاجتماعية الجديدة لنُخَب المدينة، حيث شهدت نهايات القرن التاسع عشر تحدياتٍ فرضتها بورجوازيةٌ تجاريةٌ صاعدة على العائلات الإقطاعية في المنطقة [...]، التي واصلت جمع ثرواتها من خلال السيطرة على حيازة الأراضي في المنطقة

فـي مرحلـة مـا بعـد ’التنظيمـات‘». ولكـن، مـا الإغـراء فـي بطاطـو الـذي يجعـل سوسـيولوجيًّا، علـى غـرار سـليم تمـاري، ينسـب عملـه إليـه؟

أبعد من العراق

بـلا شـك، يعـدّ كتـاب بطاطـو عـن العـراق الطبقـات الاجتماعيـة القديمـة والحـركات الثوريـة فـي العـراق «إنجيـلَ الدراسـات العراقيـة»، بحسـب تعبيـر دينـا خـوري، فـلا يمكـن لباحثـة أو باحـث أن يكتـب عـن العـراق الحديـث ومجتمعـه مـن دون أن ينطلـق مـن هـذا الكتـاب. هـذا علـى الرغـم مـن توافـر دراسـات كثيـرة عـن العـراق، فـي صدارتهـا عمـل السوسـيولوجي العراقـي علـي الـوردي (1913-1995)، الـذي تقـارن دينـا خـوري بينـه وبيـن بطاطـو.

ومـع ذلـك، يفـوق الحضـور الـذي حققـه بطاطـو – أكاديميًّـا - مـا حقّقـه الـوردي، ليس فقـط لأن الـوردي وصـف مجتمـعَ مـا قبـل الدولـة الحديثـة، حيـث ليسـت ثمـة دولـة تكـون الناظـم الاجتماعـي المركـزي والأساسـي، فضـلًا عمّـا تصحبـه هـذه الدولـةُ مـن مفاهيـم، مثـل الهويـة الوطنيـة، والتحديـث، والمركزيـة، بـل لأن الـوردي توقّـف عنـد مدرسـة الثقافـة والشـخصية، وهـي تيـار فـي الأنثروبولوجيـا الثقافيـة يجمـع بيـن الأنثروبولوجيـا وعلـم النفـس (التحليـل النفسـي خصوصًـا) والسوسـيولوجيا ظهـر فـي الثلاثينيـات والأربعينيـات مـن القـرن العشـرين فـي الولايـات المتحـدة[3]، حيـث درس الـوردي، ليتأثـر بـه، ويجتـرح – مـن ثـم – نظريتـه عـن «ازدواجيـة الشـخصية العراقيـة»، التـي جعلهـا محـرّك التاريـخ فـي العـراق[4]. وبغـض النظـر عـن وجاهـة وراهنيـة الأطـر النظريـة التـي يسـتعملها الـوردي، بـدا للأكاديمييـن أن هذيـن خلـلان فادحـان: التوقـف قبـل الدولـة الحديثـة، وهـي التـي طبعـت كل شـيء أتـى بعدهـا بميسـمها، وتعليـق التاريـخ العراقـي بعامـل مطلـق واحـد، ذي طابـع سـايكو - سوسوسـيولوجي، هـو ازدواجيـة الشـخصية، فـي حيـن بـدا بطاطـو أكثـر قربًـا، وهـو يكشـف كيـف تنشـبك التكوينـات الاجتماعيـة فـي الديناميكيـة السوسيوسياسـية العامـة. هـذا فضـلًا عـن أن لغـة بطاطـو هـي لغـة العلـم والأكاديميـا المعاصـرة، التـي تواضـع عليهـا المجتمـعُ الأكاديمـي، بـل تفوقهـا، فـي مـا ضمّنـه مـن وثائـق وتنقيبـات وأرقـام وإحصـاءات وتصنيفـات وجـداول، بمعنـى أن أطروحـة بطاطـو كانـت تحمـل برهانَهـا العلمـي معهـا، فـي حيـن أن لغـة الـوردي - وأسـتعيد هنـا مـن الراحـل فالـح عبـد الجبـار - هـي لغـة المصلـح الاجتماعـي، التـي تنتقـد لتفتـح أفقًـا للتغييـر، مـن

دون كبير عناية برسم براهين علمية على ما تقول.

والفرق بين الشخصيتين ظاهر، ففي حين بقي بطاطو حبيس الأكاديميا، تحوّل الوردي إلى ناشط اجتماعي (مثقف)، يكتب في الصحافة، ويقدم برامجَ في الإذاعة، ويشارك في الصالونات الاجتماعية والثقافية، ويستهلك الملايين من العراقيين كتبه على هذا الأساس.

كانت دينا خوري على حقّ حين قالت إن كتابات الوردي لم تكن موجّهة للمتخصصين، بل لجمهور القرّاء المثقفين. وأنا أتصوّر أنه لم يرد أن يصبح سوسيولوجيًّا أكاديميًّا، بقدر ما أراد أن يصبح مثقفًا نقديًّا. وأشدّد، هنا، على كلمة «نقدي»، ذلك أن الوردي لم يرد أن يتجاوز ثنائية (أكاديمي/ مثقف عام) فقط، بل أراد - كذلك - أن يتجاوز الصراع الإيديولوجي الحاد، الذي قسم المثقفين العراقيين – في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات - إلى فئتين: مثقفي اليسار، والمثقفين القوميين، ليؤسس حيزًا للمثقف النقدي المستقل.

وإذا كانت غايةُ المثقف الإيديولوجي تحقيقَ أهداف إيديولوجية كبرى، فإن ما كان يسعى إليه الوردي هو نقد السرديات التي يطمئن إليها المجتمع وتكذيبها، وقد أصبحت عقيدة.

مرةً، كتبتُ عن الوردي أنه كان «الجرح النرجسي» في الذاكرة العراقية. وكنت أريد أنه لحظةُ الشك في صورة المجتمع العراقي عن نفسه وفي قناعاته.

في ذروة ما بَلَغَتْه مدنيةُ بغداد في الخمسينيات، كتب الوردي مذكّرًا بالمكونات البدوية للمجتمع العراقي، وحين كان المجتمعُ يحتفل بـ «ثورة العشرين» بوصفها المأثرة التي تأسس عليها الحكمُ الوطني في البلاد، كان الوردي ينقّب ليكتشف أن ما نسميه «ثورة» ما هو - في الحقيقة - إلا تعبير عن صراعات وتنافسات على المصالح والمنافع. في إسهام سابق لي، فسّرت مجملَ عمل الوردي بأنه صوت المفكّر الذي يرافق عملية بناء الأمة، مذكّرًا بانقساماتها التي عليها أن تتجاوزها. وما انقسام (البداوة/ الحضارة) إلا كناية عن حزمة انقسامات الأمة العراقية، التي تناولها وعمل عليها الوردي في سائر أعماله، ولا سيما الانقسام الطائفي، فكتب الوردي

- قبل غيره - كيف تصوغ انشباكات التكوينات المذهبية بالدولة الهوياتِ الطائفية. وبالتأكيد، عملُ الوردي - وعملُنا جميعًا - لا يزال ابتدائيًّا في هذا المجال.

ومن ثم، يكون عمل الوردي عن انقسامات ما قبل الدولة، أو ما قبل الأمة الحديثة، أملًا في أن تبرأ الأمةُ التي شكّلتها الدولةُ من هذه الانقسامات.

أما بطاطو فلم تحكمه مثلُ هذه الغائية، وظل مشروعُه علميًّا أكاديميًّا. وهو، كذلك، لا يقف عند حدود العراق، بل يتعداه. وقد جرى تلقي كتابه عن العراق، في المجتمع الأكاديمي الغربي والعربي، بأنه ليس كتابًا عن العراق فقط، بل هو مثال لكتابة تاريخ العالم العربي الحديث. وعلى نحو أكثر إطلاقية، يقول المؤرخ الفلسطيني ماهر الشريف إن هذا الكتاب هو أهم الكتابات التاريخية عن العالم العربي الحديث في النصف الثاني من القرن العشرين[5].

تتحدث دينا خوري، في دراستها «تاريخ العراق ومجتمعه بين حنّا بطاطو وعلي الوردي»، كيف عدّت، هي وزملاؤها ممن كانوا يدرسون المجتمعات العربية الحديثة في الجامعات الأميركية، كتابَ بطاطو عن العراق، لحظةَ صدوره، بأنه نموذج لكتابة تاريخ العالم العربي الحديث[6].

وتقرن خوري كتابَ بطاطو بكتاب إدوارد سعيد الاستشراق، والكتابان صدرا في السنة نفسها، 1978[7]. لقد كان كتاب سعيد زلزالًا ضخمًا، ليس في الأكاديميا الغربية فحسب، بل في الفكر الغربي. ولا يملك كتابُ بطاطو هذا الادعاء، فهو لا ينتقد حتى الأدبيات التي سبقته في مجاله. ولو قُيّض لبطاطو أن يفتتح كتابه بمثل هذه المراجعة النقدية للأدبيات لكان زوّدنا بمادة مهمة عمّا يُسمّى في الأكاديميا الأميركية «دراسات الشرق الأوسط»، والقطائع والتحولات داخلها، فضلًا عن مراجعة الأدبيات الغربية الحديثة عن العراق. في حين أن كتاب سعيد لا ينتقد الأكاديميا الغربية فقط، بل ينتقد الغرب كله، في تمثلاته للمستعمَر، وفي المعارف التي أنتجها عنه ليهيمن عليه.
ولذلك، أعتقد أنه ينبغي لنا أن نتعامل بشكل جدي مع الربط الذي تقيمه دينا خوري بين الكتابين، وقد أقامت هذا الربط من حيث تجربتها الحية في كونها كانت داخل الأكاديمية الأميركية لحظة صدور الكتابين. ويكون علينا، من ثم،

أن نفهم - بشكل أكثر وضوحًا - الطابع الجذري في كتاب بطاطو.

بطاطو: المحلي والكوني

يلجأ كل من دينا خوري وثابت عبد الله إلى مقارنة بطاطو بمؤرخ عراقي عمل على المادة نفسها التي عمل عليها بطاطو: علي الوردي، وعزيز سباهي، فلم يكتبا عنه مفردًا، من دون مقارنة.

لماذا؟

لأن الهاجس الذي كان يشغل الاثنين، في تقديري، هو تبيان فرادة بطاطو عمّن سواه. وفرادتُه لا يمكن أن تكون إلا في المنهج، غير أن منهجية بطاطو ليست أمرًا سهلًا، قريبًا، ولم يفرد هو صفحات للحديث عنها، فلم يعمد -كما يفعل طلبة الدراسات العليا حين يكتبون أطروحاتهم- إلى كتابة فصل تمهيدي عن الأطر النظرية التي يستعملها ويفيد منها.

وإذا كان حدسُنا بفرادة منهجية بطاطو (والحدس ذو قيمة أبستيمولوجية، بحسب اعتقاد الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار) يستلزم حفرياتٍ مطوّلة للبرهنة عليه، بدا لدينا خوري وثابت عبد الله أن طريق اكتشاف منهجية بطاطو، أو الكتابة عنها، يمكن أن يكون من خلال مقارنته بمن سواه ممّن عمل في الحقل نفسه.

تكشف دينا خوري، ببراعة، كيف أن مجموعة من الأعمال البحثية التي يمكن أن تُنسب إلى «الماركسية المحدثة Neo-Marxism» أثّرت كثيرًا في بطاطو وشكّلت إطاره النظري، فتتحدث -أولًا- عن تأثير المؤرخ اليساري البريطاني إدوارد بالمر تومبسون، ثم تتوقف -بشكل أطول- عند تأثير كتاب بارنيغتون مور: الأصول الاجتماعية للدكتاتورية والديمقراطية في عمل بطاطو. ومور كان في جامعة هارفرد، حيث درس بطاطو[8].

ولكن، إلى أيّ حد يمكن وصف عمل بطاطو بأنه «تأريخ ماركسي»، أقول: عمل بطاطو، لا شخصه، فما يهمني، هنا، ليس الاختيارات الإيديولوجية للرجل، بل كيف تنعكس، لا الإيديولوجيا، بل الميثودولوجيا التي بُنيت بوحي من بعض المسلّمات (بالمعنى المنطقي) ذات الطابع أو الجذور الإيديولوجية.

وماركسيةُ نص بطاطو يمكن أن تتحقق من خلال اعتماده «التحليل الطبقي الماركسي»، بحسب ما تقول دينا خوري. و«الطبقة» هو المفهوم النظري الوحيد الذي يخصص له بطاطو مساحة لمناقشته في كتابه عن العراق، ثم يعود له في بحث مستقل.

وكذلك، تتحقق ماركسية بطاطو، في تقديري، من خلال ربطه الحاسم ديناميكيةَ التاريخ العراقي ومجتمعه بالاقتصاد السياسي.

وتذكر دينا خوري، كذلك، بعض الأمور الشخصية، من قبيل أنه كان ينوي -أساسًا- دراسة تاريخ الحزب الشيوعي العراقي، قبل أن تنفتح أمامه وثائق البلد بأكملها.

غير أن ماركسية بطاطو لم تُفضِ به إلى أن ينتج تاريخًا إيديولوجيًّا للبلاد. ولعل المقارنة، المهمة والذكية، التي يعقدها ثابت عبد الله بين تأريخ بطاطو للحزب الشيوعي العراقي (في الجزء الثاني من كتابه عن العراق) والتأريخ الموسوعي الذي كتبه المناضل والكاتب عزيز سباهي، بطلب من قيادة الحزب، وصدر في ثلاثة أجزاء ضخمة (2002-2005)، تحت عنوان عقود من تاريخ الحزب الشيوعي، وهو أوسع وأشمل تأريخ للحزب الشيوعي العراقي، من بين الأعمال العديدة التي صدرت في هذا المجال، أقول: تكشف هذه المقارنة عن الفارق بين منهجين: «منهجية حزبية»، إن صحّ التعبير، ركّزت على قرارات الأفراد (القياديين) وإراداتهم واختياراتهم، حتى في لحظات الأزمة، وقد كان سباهي حريصًا على أن يبيّن كيف كانت ثمة اختيارات أفضل، والمنهجية غير المتحزبة، التي لم تختزل التاريخ باختيارات أفراد، بل كانت تعمل على إيضاح كيف كانت تحرك التاريخ عوامل موضوعية. وتاريخ بطاطو هو تاريخ موضوعي، بحسب ما يصفه ثابت عبد الله. وينبغي لنا أن نتذكر، هنا، أن «الموضوعية» هي مقابل «الذاتية»، حيث إن التاريخ الذي كتبه سباهي هو تاريخ ذاتي، لا أقول إنه تاريخ رسمي، بل هو صورة الحزب عن نفسه وعن تاريخه.

وأكثر من ذلك، حكم تاريخ سباهي للحزب الشيوعي التزام أخلاقي. وأزعم أن

هذا الأمر لم يكن يشغل بال بطاطو، بقدر انشغاله بـ «الالتزام العلمي».

منهجية بطاطو والمركزية الغربية

كان بطاطو، بحسب دينا خوري، جزءًا من سياق الأكاديمية الأميركية في الخمسينيات والستينيات، التي حاولت تفسير الثورات المناهضة للاستعمار في العالم اللاغربي، ومنها العراق، مدار اهتمام بطاطو، حيث كانت غايته الأولى إنجاز عمل عن ثورة 1958.

من هنا، كان عمل بطاطو، الذي يعد أنموذجًا للمختصين بدراسة مجتمعات المشرق العربي ما بعد الدولة الحديثة، هو -في الحقيقة- محاولة لصياغة نموذج تفسيري محلي، أي إنه ليس نظرية كونية، بل إنه يقتبس النظرية لبناء مقولات تفسيرية محلية الطابع. وأجد، هنا، من الضرورة أن أورد التعبير الإنكليزي لفهمي لما كان بطاطو يحاوله: Localization of the Theory.

يقول بطاطو، في النص الذي كتبه في الذكرى العاشرة لصدور كتابه عن العراق، إن هذا الكتاب يعكس ترددًا بين منهجين: التأريخ البنيوي الذي تعلمه من ماركس، والتجريبية البريطانية المعنية بالوقائع والتفاصيل والوثائق.

وفي تقديري، أن الأهمية التي شدت المختصين إلى عمل بطاطو هي هذه: لا التردد بين التقليدَين، بل القدرة على أن يمضي بهما معًا: تأريخ يرسم حدود القوى الاجتماعية التي تحركه، مبرهَنًا عليه بكمّ استثنائي من التفاصيل والوقائع التي جرى تحليلها وتصنيفها.

تطرح دينا خوري واحدًا من أهم الإشكالات النظرية التي تواجه عمل بطاطو، وهو أنه كان يبحث ديناميكية انتقال المجتمع العراقي إلى أن يكون مجتمعًا حديثًا، يتخلص من الولاءات ما قبل الحديثة، كالعشيرة والطائفة، لتتبنى الديناميكية السياسية فيه على ولاءات حديثة عابرة للطائفة والعشيرة وما إليهما. إلا إن تاريخ العراق الحديث دائمًا ما كان يفرز استعصاءات تتحدى هذه النظرية، مثل الحضور الكبير للهويات الدينية والطائفية والإثنية، وهي استعصاءات أكبر من أن تفسّر بأنها صراع القديم والحديث، على طريقة علي الوردي.
ينتمي بطاطو، بحسب ما أزعم، إلى التيار الذي يؤمن بأنّ مسار تحديث بدأ

في المنطقة، وأن عثراته لا تعبّر عن صراع بين القديم والحديث، بل عن انتكاسات داخل مسار التحديث.

وأنا أتحفظ على هذه الرؤية، من أربعة مداخل:
الأول هو أن هذه الرؤية تتصور الحداثة مسارًا حتميًّا، ينبغي لكل المجتمعات أن تبلغه. وقد حاجج عالم الاجتماع الألماني يورغن هابرماز بأن الحداثة مشروع تاريخي، لها زمان ومكان محدّدان. وما جرى هو انتزاع الحداثة من سياقها، وتحويلها إلى مجموعة من الآليات القابلة للنقل، في إطار ما سمّي «التحديث».

الثاني أن المجتمعات اللاغربية، ومنها مجتمعات المشرق العربي، شهدت -فعلًا - تحديثًا غربيَّ الطابع، فرضه الاستعمار، الذي أراد نزع البنى القديمة ليحلّ محلها بنى جديدة مقتبسة من تجربته. ولكن، على المستوى الأكاديمي، يبدو لي أن وصف أيّ عملية تقدم داخل هذه المجتمعات (أيّ التحرك إلى أمام) من خلال لغة الحداثة الغربية حرمنا من متابعة ما يمكن أن تبدعه هذه المجتمعات خارج نموذج الحداثة الغربية. أنا أدرك أن الأمر شديد التعقيد، وقد يكون مستحيلًا، ذلك أننا لا نملك لغة غير لغة الحداثة الغربية، حتى وإن تحدثنا عن «طرق خاصة في الحداثة»، التي تعني -للمفارقة- الوصول إلى النتائج الغربية من مقدمات لاغربية. فعلى سبيل المثال، هل يمكن أن نَصِفَ أشكال التعاقد السياسي المدوّنة بغير كونها دساتير ونظمًا دستورية؟ وهل يمكن أن نصف التمايزات بين الوظائف السياسية بغير كونها فصلًا بين السلطات؟ وهل يمكن أن نصف التراتبيات الاجتماعية بغير كونها طبقات؟ وهل يمكن أن نجد مصدرًا لحركات التصحيح الجندري غير ما خلّفه الغرب؟ وهكذا.

الثالث أن هذه الرؤية تفترض أن البنى القديمة تموت أمام الحداثة. وفي الحقيقة، كشفت تجربة مجتمعاتنا أن هذه البنى تتكيف، أو تعاد صياغتها وبَنْيَنَتها، لتتكيف مع البنى الحديثة. ومن ثم لا يكون الأمر صراعًا بين القديم والحديث، أو مقاومة بين القديم والحديث، بل يكون تفاعلًا بينهما. وهذا يفسر كيف ظلت الهويات الطائفية والدينية والإثنية حاضرة في حداثة مجتمعاتنا.

في عمل سابق، حاولت أن أوضح كيف أن المؤسسة الدينية الشيعية في العراق

أواسط القرن العشرين شهدت صراعًا بين تيارين: تيار عرَّفها من خلال الهوية الوطنية الناشئة، وتيار أطلق استراتيجية نقيضة لبناء الأمة، فعرّف الهوية الشيعية بوصفها أوسع من الهوية العراقية[9].

وهكذا، لم تمت الهوية الشيعية أمام هجمة الحداثة، بل اكتسبت معانيَ أقوى، وظلت تتحول إلى فضاءات مسيّسة، للاحتجاج السياسي، أو للهيمنة والتسلط، أو للجماعات المهمشة، وما إلى ذلك.

الرابع أن بطاطو يفكر في المجتمع تفكيرًا جوهرانيًّا، بمعنى أنه يتصور أن المجتمع يتسم بمجموعة من الخصائص الثابتة، وما لحظاتُ الاضطراب فيه إلا فرصة ليكشف فيها المجتمع عن دواخله، يقول عن ثورة 1958 في العراق: «إن لحظات الغليان هي خير فترة لدراسة المجتمعات على أحسن وجه. وقد بدا بالفعل أن المجتمع العراقي لم يكشف عن نفسه أو يمِط اللثام عن مزيد من أسراره كما فعل في تلك اللحظة». ومن ثم، لا يتعامل بطاطو مع هذه الاضطرابات بأنها مظاهر حركة المجتمع وتغيره، فالمجتمع لديه ليس ديناميكيًّا متحركًا، بل ساكن وثابت، شهد حركة وحيدة، هي الانتقال من النظام القديم إلى الحداثة.
وفي النتيجة، تعامل بطاطو مع هذه المظاهر، بما في ذلك الأحداث والخضات الكبرى التي عاشها المجتمع العراقي، كثورة 1958، بوصفها مظاهر سطحية، في حين أن العوامل الداخلية تعتمل بشكل غير ظاهر.

وفي الخلاصة، لا تنفصل رؤية بطاطو عن المركزية الغربية: في افتراض حتمية الحداثة، وفي العجز عن تقديم لغة جديدة لوصف التقدم الاجتماعي غير لغة الحداثة الغربية، وفي افتراض أن البنى القديمة تموت أمام الحداثة.

الهوامش:

(1)- Sanders, Carol (ed.). 2004. The Cambridge Companion to Saussure, Cambridge University Press.

(2)- تايلر، تشارلز. 2015. المتخيلات الاجتماعية الحديثة، ترجمة الحارث النبهان، الدوحة-بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

(3)- Barnard, Alan and Jonathan Spencer (eds.).1996. Encyclopedia of Social and Cultural Anthropology, Routledge, London – New York, P. 144.

(4)- الحيدري، إبراهيم. 2006. علي الوردي: شخصيته ومنهجه وأفكاره الاجتماعية. بيروت: منشورات الجمل، كولن.

(5)- الشريف، ماهر. 2006. "حنا بطاطو: العراق، الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية"، في: مجموعة مؤلفين، المجتمع العراقي: حفريات سوسيولوجية في الإثنيات والطوائف والطبقات. بغداد-بيروت: معهد الدراسات الاستراتيجية – العراق. ص 53.

(6)- خوري، دينا. ربيع 2018. "تاريخ العراق ومجتمعه بين حنّا بطاطو وعلي الوردي"، في: مجلة عمران، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة – بيروت. ص 8.

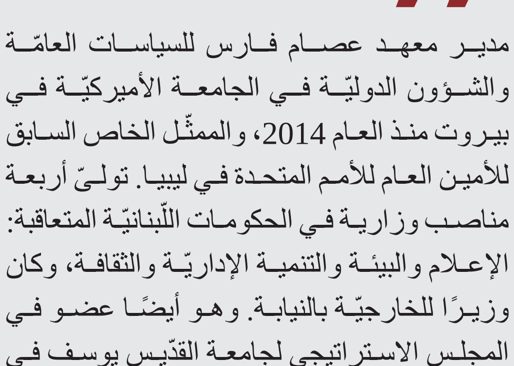
(7)- المرجع نفسه.

(8)- المرجع نفسه ص11-9.

(9)- سعيد، حيدر. 2019. "شيعة العراق وضغط الهوية الدينية: حفريات في معنى الهوية الشيعية"، في: حيدر سعيد (محرر)، الشيعة العرب: الهوية والمواطنة. الدوحة-بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

حنّا بطاطو... المثقّفُ العموميّ





طارق متري

مديـر معهـد عصـام فـارس للسياسـات العامّـة والشـؤون الدوليّـة فـي الجامعـة الأميركيّـة فـي بيـروت منـذ العـام 2014، والممثّـل الخـاص السـابق للأميـن العـام للأمـم المتحـدة فـي ليبيـا. تولـىّ أربعـة مناصـب وزاريـة فـي الحكومـات اللّبنانيّـة المتعاقبة: الإعـلام والبيئـة والتنميـة الإداريّـة والثقافـة، وكان وزيـرًا للخارجيّـة بالنيابـة. وهـو أيضًـا عضـو فـي المجلـس الاسـتراتيجي لجامعـة القدّيـس يوسـف فـي لبنـان ورئيـس مجلـس أمنـاء معهـد الدراسـات الفلسـطينيّة وعضـو مجلـس إدارة المركـز العربـي للأبحـاث ودراسـة السياسـات. وقـد حاضـر فـي عددٍ مـن الجامعـات فـي لبنـان وأوروبـا وأميـركا الشـماليّة.

رغـم أنّ أيَّ صداقـةٍ أو زمالـةٍ لـم تربطنـي بالدكتـور حنّـا بطاطـو، إلّا أن مـا رأيتـه منـه ومـا عرفتـه عنـه كافيـان لأذكـره جيدًا فـي الجامعـة الأميركيـة فـي بيـروت كمـا وفـي جامعـة «جـورج تـاون».

أذكـره حيـن كنـتُ طالبًـا فـي الجامعـة الأميركيـة فـي بيـروت، وكان يتـردّد إلـى المقهـى الطالبـي، الميلـك بـار، متأبطًـا جريـدة «البرافدا» الروسـيّة. كنّـا ثلةَ أشـخاص معجبيـن بالدكتـور حنّـا بطاطـو عـن بُعـد. فـي ذاك الوقـت كان يُعـدُّ كتابـه عـن العـراق. لفتتـي إتقانـه الروسـية. بـلا حـرجٍ كنّـا نسـأله عـن أحـوال الاتحـاد السـوفياتي فيجيبنـا ببسـاطة ودقـة.

أذكر أيضًا أنه لم يكن أستاذًا بالمعنى التقليدي للكلمة. فكتابُه عن العراق كان شغلَه الشاغل في تلك الفترة، وهو ما فتح له المجال للقاء عددٍ كبير من العراقيين من مختلف المشارب. كان الدكتور حنّا بطاطو مثقفًا عموميًّا وليس فقط أستاذًا جامعيًّا.

بالإضافة الى مصادفته في الجامعة الأميركية في بيروت، التقيته في جامعة «جورج تاون». بتّ يومها مدركًا أنني أمام باحث ومثقف استثنائي. قليلة هي الكتب التي تضاهي كتابَيْه عن العراق وسوريا قيمة. استحق هذا الرجل أكثر بكثير مما أعطته الجامعات من مكانةٍ، وفضلُه أكبر بكثير مما اعتُرِف به من فضل. حنّا بطاطو كان رجلًا كتومًا، خفرًا، مهذبًا ومتحفّظًا ولا يغالي في تعظيم نفسه. بدا شديدَ التواضع ولم نسمعه يومًا يفاخر بعلمه كما يفعل سواه.

تعليق

تعلّمتُ ثلاثة دروس من حنّا بطاطو...



فيليب س. خوري

أستاذ فورد الدولي في التاريخ ومساعد الرئيس في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. كما أنّه رئيس مجلس أمناء الجامعة الأميركية في بيروت. يعدُّ خوري مؤرخًا سياسيًّا واجتماعيًّا للشرق الأوسط. له مؤلفات عدة باللغة الإنكليزية أبرزها:

Urban Notables and Arab Nationalism

Syria and the French Mandate والذي حصد عنه جائزة جورج لويس بير من الجمعية الأميركية التاريخية.

Tribes and State Formation in the Middle

The Modern Middle East: A Reader

Recovering Beirut: Urban Design and Post-war Reconstruction

عرفت الأستاذ حنّا بطاطو بطريقتين: كأستاذي في الجامعة الأميركية في بيروت من العام 1969 حتى العام 1970، ومن خلال دراساته الرائدة عن العراق وسوريا. عندما التقيتُ به للمرّة الأولى، كان أستاذًا يبلغ 43 عامًا من العمر ويعلّم في قسم العلوم السياسية والإدارة العامة. أخذتُ معه مادّة واحدة فقط في الجامعة الأميركية في بيروت، بعنوان «حكومات الشرق الأوسط». كان يعطي هذه المادّة وغيرها في أولى ساعات المساء دائمًا، عندما يكون معظم الطلّاب الآخرين قد عادوا إلى غرفهم في حرم الجامعة أو إلى منازلهم، إذ تكون الضجة في حدّها الأدنى. كان ينشدُ انتباه طلّابه الكامل وغير المشتّت.

كنت أشعر أنّه يحبّ أن يدرّس في وقت متأخّر من اليوم ليستطيع تكريس فترات الصباح وجزءٍ من بعد الظهر للكتابة. أظنّ أنّه، بعد صفوفه، كان يتوجّه إلى مكتبه القريب ليتابع الكتابة.

في بداية الفصل، لم يحدّد حنّا سوى ثلاثة كتب لنقرأها: «الصراع على سوريا» لباتريك سيل، و«مصر: مجتمع عسكري» لأنور عبد المالك، و«العراق 1900-1950» لستيفن ه. لونغريغ.

كوني انتقلت من الولايات المتحدة، اعتقدت أنّ هذه الكمية من القراءات قليلة، لكنّني سرعان ما أدركت أنّ حنّا كان يتوقّع من طلّابه قراءة هذه النصوص بطريقة تتطلّب التشبّع من التفاصيل الغنية في كلّ كتاب وفي الوقت نفسه التعمّق في تركيبتها السردية. لإتمام المهمّة، كان يختار طالبًا بشكل عشوائي كلّ مرّة ليتقدّم إلى أوّل الصف ويجلس في كرسي مواجه للطلّاب الآخرين ويجيب عن أسئلة يطرحها حنّا بسرعة حول القراءة الأسبوعية. إذا تلعثم الطالب، يُطرد من الصفّ ويُحضر حنّا بديلًا. انخفض معدّل طرد الطلّاب بشكل ملحوظ في خلال الفصل الدراسي، إذ تعلّموا بسرعة أن يكونوا جدّيّين مع الأستاذ بطاطو. كتبت في مقال آخر أنّني كنت أجد أسلوبه التعليمي مرعبًا، لكنّني أنهيتُ المادّة، حاملًا معي أفكارًا جديدة رسمت معالم تعليمي ودراساتي في نصف القرن الماضي. تعلّمت من بين أمور أخرى أهمية قراءة النصّ عن كثب بنظرة تحليلية، وأنّ التاريخ السردي ليس «مجرّد حدث لعين تلو الآخر»، إنّما تمرينٌ تحليليٌّ صارم. يتطلّب السرد الجيّد غربلة حذرة للأدلّة، وهذا في حدّ ذاته تمرين تحليلي أساسي. كان حنّا بطاطو بارعًا في كتابة التاريخ السردي، على الرغم من جمله الطويلة والغنية بالتفاصيل.

وقعت مشادّة كلامية بيني وبينه ذات مرّة في خلال الفصل في الصفّ. أحضر قائدًا فلسطينيًا للتحدّث إلى الطلّاب، لكن كانت لغة هذا القائد الإنكليزية ضعيفة، لسوء الحظّ. بسبب طريقة عرضه للقضية، بدت حركة المقاومة الفلسطينية متهالكة، لكنّني كنت أعلم أنّ تلك لم تكُن نيّته. عبّرت لحنّا بعد الصفّ عن قلقي وحثثته على دعوة شخص آخر لتصحيح الصورة. لم يرُق له ذلك، واعتبر أنّني تخطيت حدودي واتصل بي في منزل عائلتي ليخبرني بذلك. قال

إنّ دور الطلّاب ليس تلقين أساتذتهم كيف عليهم إدارة صفوفهم. لذا، تفاجأتُ كثيرًا عندما حضر إلى صفّنا بعد بضعة أسابيع مثقف وعالم اقتصاد فلسطيني بارز آخر للتحدّث عن القضية الفلسطينية، بوضوح فائق، مقدّمًا حججًا قوية. افترضت أنّ تدخّلي أحدث الفرق، لكنّ حذّرني حنّا من افتراض مثل هذا الأمر. كان قد رتّب حضور المتحدث الثاني قبل حضور الأوّل بوقت طويل.

بدا لي حنّا غريب الأطوار اجتماعيًّا، وكان أشبه بناسك علمي. كان في ذلك الوقت يسكن مع والدته في منزل على التلال فوق بيروت. لم تهمّه التجمعات والمناسبات الاجتماعية، لكن، من بين جميع أساتذتي في الجامعة الأميركية في بيروت، كان الوحيد الذي دعانا، زملائي وأنا، إلى منزله لقضاء أمسية ممتعة شملت عشاء ومناقشات. كانت والدته في وسط هذه الجلسة، وكم كانت امرأة لطيفة !

لم تكُن معلوماتي عن حنّا أو عائلته واسعة، لكنّني أتذكّر قول أحدهم إنّ آل بطاطو كانوا مقدسيين ذوي جذور مالطية وإنّ والد حنّا عمل لحساب شركة قناة السويس ووالدته من أصول جزائرية.

حظيت دراسة «الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية الحديثة في العراق» بإشادة هائلة ونقد بنّاء في الوقت نفسه. أعتقد أنّ هذه الدراسة هي الأهمّ حول الشرق الأوسط الحديث التي تظهر في النصف الثاني من القرن العشرين في أيّ لغة. نُشرت في العام 1978، التي صدر خلالها أيضًا كتاب «الاستشراق» لإدوارد سعيد، ما يجعل هذه السنة معجزة من معجزات النشر في هذا المجال. يمكنني أن أضيف حاشية سفلية عن قصّة نشر دراسة «الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية الحديثة في العراق». جالت المخطوطة الطويلة (ثلاثة أجزاء في كتاب واحد وأكثر من 1300 صفحة) دور النشر، ولكن من دون نتيجة. كان اقتراح نشرها محفوفًا بالمخاطر بسبب طولها وموضوعها. لكن، صودف أنّ كان أحد قرّاء المخطوطة متخصّصًا معروفًا في الأحزاب الشيوعية، الأستاذ ويليام غريفيث من «معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا» أم.أي.تي (أصبحت زميله في الجامعة وعميد كليته لاحقًا وتقرّبنا في خلال سنواته في المعهد). كان غريفيث قد قرأ كلّ شيء متوفّر تقريبًا عن

الأحـزاب الشـيوعية حـول العالـم، وأذهلتـه ببسـاطة أبحـاث وتحليـلات حنّـا. اعتبـر الجـزء الثانـي أفضـل دراسـة كُتبـت عـن حـزب شـيوعي فـي العالـم الثالـث، وأخـذ علـى عاتقـه الشـخصي إقنـاع دار نشـر جامعـة برنسـتون بنشـره.

كان غريفيـث مـن المعارضيـن الشـديدين للفكـر الشـيوعي، وكان ذوقـه الفكـري رفيعًـا، وثبُـت أنّ قـرار دار نشـر جامعـة برنسـتون بنشـر المخطوطـة كان متبصّـرًا، إذ فتـح أيضًـا المجـال أمـام باحثيـن آخريـن لديهـم مخطوطـات طويلـة ويبحثـون عن دور نشـر مـن المرتبـة الأولـى، ويمكننـي القـول إنّنـي أحـد المسـتفيدين مـن تدخّـل غريفيـث.

تعلّمـت مـن حنّـا بطاطـو ثلاثـة دروس: أوّلًا، مـا يحصـل فـي الصـفّ مـن حـقّ الأسـتاذ فقـط أن يقـرّره؛ ثانيًـا أنّ التاريـخ السـردي يملـك أهميـة وقيمـة بقـدر أيّ بُعـد آخـر مـن أبعـاد الدراسـات التاريخيـة؛ ثالثًـا وأخيـرًا أنّ علـم الاجتمـاع السياسـي أداة غنيـة يمكـن اسـتعمالها لتحديـد إطـار التحليـل التاريخـي.

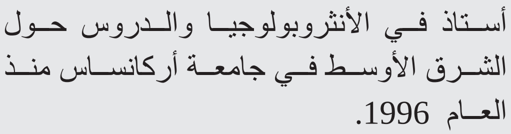
بالرجـوع إلـى الـدرس الثالـث، أودّ أن ألفُـتَ إلـى أنّ المسـار الـذي اتّبعتـه فـي علـم الاجتمـاع السياسـي، نـزولًا عنـد اقتـراح حنّـا، يمكـن أن يُسـمّى بالنهـج الكلاسـيكي المسـتوحى بشـكل رئيسـي مـن ماركـس وفيبـر، ولكـن أيضًـا مـن دوركايـم. يضـمّ فـي جوهـره تأسـيس الدولـة الحديثـة ومَـن سـيحكمها. علّمنـي حنّـا (وعلّـم كثيريـن غيـري) تأثيـر عـدم المسـاواة الاجتماعيـة علـى السياسـة. شـجّعنا علـى التركيـز علـى النـزاع الطبقـي والإثنـي-الدينـي، لكنّـه لـم يذكـر أبـدًا التأثيـر الجنـدري. لـم يكُـن الوحيـد فـي جيلـه الـذي تجاهـل الجنـدر أو النـوع الاجتماعـي. خلـط فـي كتاباتـه التاريخيـة بيـن الحـركات الاجتماعيـة والإيديولوجيـات والشـخصيات. فـي نهايـة المطـاف، منـح علـم الاجتمـاع السياسـي حنّـا نافـذة ليـرى مـن خلالهـا طريقـة عمـل علاقـات القـوّة فـي العـراق وسـوريا، وبالتالـي، فـي سـائر العالـم العربـي. اسـتطعت أن أنظـر مـن النافـذة نفسـها فـي دراسـاتي، ولكـن لـم أسـتطع أن أبلـغ العمـق أو التفكّـر التحليلـي الـذي تتألّـق بـه أعمـال حنّـا بطاطـو.

بعـد وفـاة حنّـا بطاطـو بفتـرة وجيـزة فـي العـام 2000، اقترحـت علـى الأسـتاذ روجـر أويـن مـن جامعـة هارفـرد (الـذي توفّـى العـام الماضـي فـي كامبريـدج،

ماساتشوستس) أن نحاول زيارة عائلة حنّا في ونستد في كونيتيكت، حيث كان يعيش مع عائلة أخيه، لنرى ما إذا كان قد ترك أيّ كتاب أو مقال أو مخطوطة للنشر بعد وفاته. اتصلت بأخيه من دون إخطار، ووافق أن يستقبلنا ويرينا مكتب حنّا، الأمر الذي أسعدني. بعد يوم من البحث والغربلة والترتيب، لم نجد أيّ مخطوطات واضحة. وجدنا آلاف بطاقات الملاحظات وأجزاء أبحاث متعلّقة بها كان حنّا قد استعملها لصياغة كتبه عن العراق وسوريا. رحلنا، روجر وأنا، خائبَيْن، لكنّنا زرنا قبل ذلك المقبرة في ونستد حيث يرقد حنّا. هناك أيضًا، دُفن أفراد عائلة نادر، أهل رالف، الذين ترعرعوا في ونستد.

تعليقٌ

حنّا بطاطو... المحاضرُ الشجاع الحذق



تيد سويدنبرغ

أستاذ في الأنثروبولوجيا والدروس حول الشرق الأوسط في جامعة أركانساس منذ العام 1996.
ألّف كتاب «ذكريات الثورة: ثورة 1936-1949 والماضي الوطني الفلسطيني» (1995). درّس في جامعة واشنطن-سياتل بين العامين 1988 و1991، وفي الجامعة الأمريكية في القاهرة بين العامين 1992 و1996. تركّز أبحاثه الحالية على الموسيقى الشعبية في الشرق الأوسط.

التحقتُ بالجامعة الأميركية في بيروت في العام 1969، وتخرّجتُ منها عام 1974، محصّلًا إجازة في التاريخ. في ربيع 1972، انضممتُ إلى صفّ حنّا بطاطو في الدراسات السياسية والإدارة العامة 234، تحت العنوان الكبير «الفكر السياسي العربي»، على ما أظنّ. كان بطاطو محاضرًا مذهلًا، وشملت معظم محاضراته، التي أذكر أنّها أثارت اهتمامي، قراءة مخطوطة تشكّل جزءًا من كتاب نشره لاحقًا بعنوان «الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق». مرّة في الأسبوع، أو ربما كلّ أسبوعين، كان بطاطو يقضي الجزء الأوّل من الحصة في مناداة الطلّاب عشوائيًّا للإجابة عن بعض الأسئلة الأكثر صعوبةً حول القراءة التي عيّنها. لم نكُن نعرف مَن سيقع الاختيار عليه، وكان الشخص المُختار يشعر أنّه محطّ الأنظار والانتقاد. كنّا نحاول أن نعطي أفضل إجابة ممكنة، ولكنّه كان يُتبع السؤال بآخر أو أكثر، وبالصعوبة نفسها. كانت

هذه الجلسات جزءًا من النقاش في الصفّ، وكانت مصمّمة لإرغام الطالب على القراءة والتفكير في النصوص جيّدًا. كانت التجربة مخيفة ومرهقة، لكن في الوقت نفسه، قيّمة. في الأحوال شتّى، كانت الحصّة مثيرة للاهتمام لدرجة أنّ جميع الطلّاب كانوا يحرصون على الحضور رغم جلسات «الاستجواب».

شملت الكتب التي كانت علينا قراءتها كتاب أوريل دان «العراق في عهد قاسم: تاريخ سياسي، 1958-1963». لم تكُن مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت قادرة على تأمين نسخ من الكتاب بسبب المقاطعة العربية التي التزم بها لبنان. في اليوم الأول من الصفوف، حرص بطاطو على إعلامنا بأنّه عيّن هذا الكتاب للقراءة لأنّه أفضل دراسة حول الموضوع، رغم أنّ المؤلّف إسرائيلي، وأنّه وجد النصّ ملائمًا للحصة. لم ينتقد مقاطعة الدولة، لكنّه أكّد أنّ عواقب المقاطعة وخيمة في حالات كهذه تشمل التعليم والتعلّم كما أنّها مثيرة للجدل وقصيرة النظر. اضطُرّ بطاطو إلى تحديد كتاب ستيفن لنغريغ بعنوان «العراق: 1900 إلى 1950» كبديل، رغم أنّه اعتبره أقلّ مستوى من كتاب دان. صرّح بطاطو بذلك أمام صفّ مليء بطلّاب آتين من أنحاء العالم العربي كافة، وكان كثيرون منهم نشطاء سياسيين يساريين ينتمون إلى فصائل سياسية مختلفة. رأيتُ حينها أنّ بطاطو شجاع وحذق لاتخاذه هذا الموقف، وشعرت أنّ هذه الحادثة علّمتني الكثير.

في رسالة إلكترونية قديمة لكريس تونسنغ، وجدت قصة أخرى عن بطاطو مثيرة للاهتمام:

«ورد في ندوة عامة لعصام الخفاجي: عندما بدأ بطاطو بالتفتيش عن معلومات حول بغداد لبحثه حول «الطبقات الاجتماعية القديمة»، وُكّل الحزب الشيوعي العراقي ليتحقّق من خلفيته. كانت بعض المعلومات مجرّد شكوك عادية تراود أيّ أجنبي مهتمّ بالشيوعيين العراقيين، ولكنّ جزءًا من القضية كان أنّ بطاطو فلسطيني، ما أثار شكوك قيادة الحزب آنذاك. اعتُبر بطاطو «ثوريًّا سابقًا لأوانه» أو ثرثارًا ستالينيًّا، وواجه الانتقادات من جميع الجهات».

شهادةٌ من العائلة (١)

حنّا القوميّ العربيّ بامتياز!

شكري عبدالله*

في السطور الآتية، شهادة من أحد أفراد عائلة حنّا بطاطو. يروي شكري عبدالله، ابن شقيقة حنّا بطاطو، ماري بطاطو عبدالله، لحظاتٍ قليلة مع خاله حنّا.

«كان حنّا إنسانًا طيّبًا، بسيطًا، عاشقًا للمعرفة. آثر الابتعاد من الأضواء وكان يضع العمل العلمي أمام الجميع للتقييم. وإذا نظرنا إلى كتبه لوجدنا أنه كان دائمًا يستهلّ كتبَه بعلامة استفهام. عشق حنّا المعرفة حتى الرمق الأخير، واهتمّ بمعرفة ما يحدث من حوله في العالم. لم يكن انعزاليًّا كما يتّهمه بعضهم بقدر ما كان مهتمًّا بتخزين المعرفة، لا بل كان على ارتباطٍ مباشر بالعالم من خلال الأخبار. كان يجمع قصاصات الصحف ويحفظها في منزله. عندما توفّي اضطررتُ إلى تنظيف منزله في ولاية فرجينيا، فوجدت ما يناهز 10 أطنان من الصحف والقصاصات التي كان يحتفظ بها. وكان حنّا معروفًا بارتباطه الشديد بالمنطقة العربيّة.

عندما طلب مساعدتي في طباعة كتابه عن سوريا باستعمال الحاسب الإلكتروني، سألتُه إهداء الكتاب إلى أمي، أخته ماري، ولكنه أصرّ على أن يكون الإهداءُ إلى الشعب السوري. وذكر لي أنه عندما كان يطّلع على الملفات في العراق، إنما كان يهدف إلى تذكير العراقيين بضرورة الحفاظ على تاريخهم في الصناديق المهملة في بعض الأحيان تحت مياه الأمطار. وهكذا فعل فأهدى كتاب العراق إلى الشعب العراقي.

من سمات حنّا أيضًا أنه كان يؤثر القراءة ببطءٍ شديد إذ لم يكن مهتمًّا بالقراءة من أجل القراءة بل من أجل الفهم. وتشهد على ذلك قصّة مع طالبٍ فلسطيني من طلابه كان كفيفًا، وكان هذا الشاب يدرس في الجامعة الأميركية في

بيروت. وحينها لم تكن تقنية «البرايل» متوفّرة، لذا كان يُستعان بقارئ ليتلو على مسمع الشاب الكفيف ما في الكتاب، وكان حنّا يتوسط القارئ والطالب ويقف خلف الباب ليتأكد من أنّ الشاب يفهم ما يُقرأ على مسمعه. وذات يوم دخل إلى القارئ وطلب منه أن يقرأ برويةٍ أكثر قائلًا: «أنا أرى وأقرأ بسرعةٍ أقلّ من سرعة قراءتك».

على المستوى الشخصي، كان حنّا صادقًا لا يعرف الغشّ أو التلاعب أو الكذب. كان برئيًا كالأطفال الذين أحبهم. أحبّ عائلته ولكنّ وقته كان مقدّسًا وجوهريًّا بالنسبة إليه. كان يجيد حماية وقته والحرص على عدم تضييعه، على سبيل المثال كنّا نلتقي أيام السبت فقط لتناول الطعام معًا لوقتٍ محدّد.
يزعجنا في بعض الأحيان أنّ بعض الكتّاب والمفكرين العرب يتّهمون حنا بالعمالة لصالح المخابرات الأميركية، لأنّه استطاع الوصول إلى الملفات العراقية للسجناء الشيوعيين والاطّلاع عليها، ولكن كلّ من عرف حنا، أدرك أنه كان قوميًّا عربيًّا بامتياز.

أخيرًا، نتقدم من المجلس العربي للعلوم الاجتماعية بكلّ الشكر والاحترام لكل ما يفعله لتقديم عمل حنا العلمي إلى العالم العربي. أنا أعرف شخصيًّا كم كان يرغب في أن يطّلع القارئُ العربي على تاريخه».

* ابنُ شقيقة حنّا بطاطو، ماري بطاطو عبدالله.

شهادةٌ من العائلة (٢)

كلماتُ «جون» الأخيرة

برندا رينود ديفس*

شهادةٌ عائليّة أخرى ولحظاتٌ أخيرة في حياة الراحل حنّا بطاطو ترويها ابنةُ شقيقه طوني، برندا رينود ديفس التي لازمته في لحظاته الأخيرة.

«غادر عمّي جون (حنا) هذه الدنيا بهدوء تام. قبل ليلة من رحيله اجتمعنا حول مائدة العشاء وكان عمّي متيقظًا وواعيًا وتعرّف إلى كلّ واحدٍ منّا باسمه، وكانت ليلة رائعة لا يمكن أن أنساها. ليلتها، تحلّقت العائلة برمّتها حول مائدة العشاء، فجأةً ورغم مرضه استعاد عمّي جون نشاطه وطاقته. حتى إنه رحّب بزوجي ما إن رآه يعبر الطريق متوجّهًا إلى داخل المنزل. في تلك الليلة، تناولنا الطعام معًا وتبادلنا الأحاديث واستمتعنا بكلّ لحظة. ثمّ ذهبتُ معه لمشاهدة التلفزيون، وكان يُعرض برنامج نتابعه دومًا فيه يقول المذيع السؤال على أن يصوغ المتسابق الجواب على شكل سؤال، فسمعته يتفاعل بصوتٍ خافت مع جوابٍ للمذيع، لم أتبنّه إليه، قائلًا: «ما هو العراق؟». كان المشهد مضحكًا. في اليوم التالي أطبق مرض السرطان عليه، وبسبب الدواء المسكّن أغمض جون عينيه ليرحل في الليلة التالية.

بالنسبة إلى شخصيّة عمّي جون، كان شديدَ التركيز على عمله، يعشق ما يفعل ويُسعَد به. عاش بسيطًا ولم يحبّ الأضواء. عمل بصمتٍ تامّ وآمن بأنّ جميع الناس متساوون. في المقابل كان يتمتّع بحسّ فكاهيٍّ عالٍ، يحبّ الأطفال كثيرًا، يأتي في الأعياد ليلعب معهم ويحضر مناسباتنا العائليّة حتى لو كانت ذات طابع ديني رغم أنه لم يؤمن فيها. ذات مرّة، كنت أهمّ بالخروج من المنزل فسألني: إلى أين أنتِ ذاهبة. أجبته: إلى الكنيسة لتعليم الكاثوليكية. فنظر إليّ نظرة مداعبة وقال: أنتِ ذاهبة لنشر التخاريف؟!

رغم جدّيته التي عرف عنها معظم الناس، كان عمّي جون محبًّا لعائلته، قريبًا

منهـا. أحـبّ شـقيقه (والـدي) بشـكل كبيـر.

كثيـرًا مـا كان يحدّثنـا عـن عملـه، ولكـنّ المشـكلة أننـا لـم نكـن علـى قـدر ثقافتـه وتبحُّـره فـي العلـم. وبخفـة ظلـه، كان يحـاول أن يلعـب معنـا لعبـة الأسـئلة والأجوبـة، فـكان يطـرح علينـا أسـئلة يعجـز أيٌّ منـا عـن إيجـاد أجوبتهـا.
احتفـظ عمّـي جـون بحبّـه الطفولـي لفلسـطين، وبقـي يـردّد علـى مسـامعنا عبـارة: «كونـوا فخوريـن بأصلكـم وبمـن أنتـم عليـه». وفـي شـخصه المهنـي، جمـع المفكّـر والأكاديمـي اللامـع والرجـل الشـغوف بعملـه».

* ابنة شقيق حنّا بطاطو، طوني بطاطو.

حنّا بطاطو

السيرة والمسيرة (1926-2000)

هو ابنُ القدسِ، ولدَ وشبّ فيها. له في نواصيها ذكرياتٌ جميلةٌ سبقت أيامها السود. عاشَ حنّا بطاطو محنة فلسطين قبل أن يهاجرَها إلى الولايات المتحدة في العام 1948.

تركت نكبةُ فلسطين في جسده ونفسه ندبةً رافقته حتى الرمق الأخير وطبعت توجُّهه نحو التخصُّص في دراسة سوسيولوجيا النخب الحاكمة في البلاد العربية، إلى أن غدا مؤرّخًا عالميًّا وخبيرًا مرموقًا في شؤون العالم العربي المُعاصر.



صورة لحنا بطاطو الطفل مع والده شكري ووالدته إيفون وشقيقتيه ماري وجوليانا

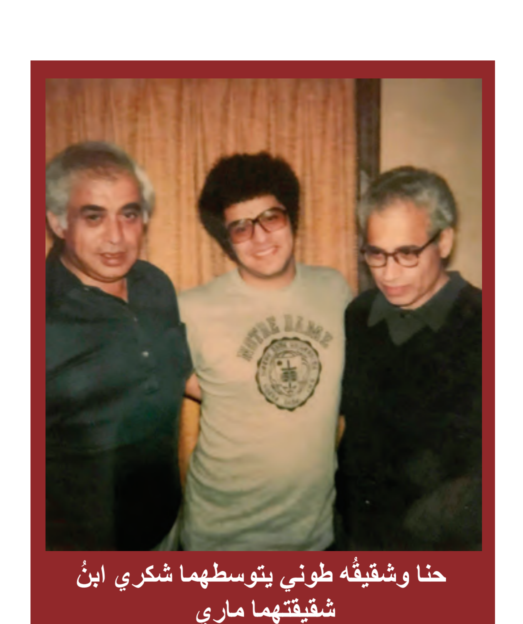
تابع دراسته بين العامين 1951 و1953 في كليّة إدموند والش للشؤون الخارجية في جامعة جورج تاون وحاز جائزةً مرموقة مخصّصة للطلاب في مرحلة البكالوريوس. كما حصل على منحة لدراسة العلوم السياسية في جامعة هارفارد حيث التقى بارينغتون مور الابن وهربرت ماركوزه وتأثر بشدة بمنهجهما الماركسي. بات بطاطو يُعرّف طلابه عن نفسه لاحقًا بأنّه ماركسي مستقل تمامًا كما كان يفعل مرشده ماركوزه. أبدى اهتمامًا بالغًا بالتاريخ السوفياتي، لكنّ العراق سرقَ اهتمامه. حصد درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد في العام 1960 وقدّم أطروحة بعنوان

«الشيخ والفلاح في العراق»، 1917-1958.


حنا بطاطو في عمر الشباب

لم يكن مروره بلبنان عابرًا، فدرّس في الجامعة الأميركية في بيروت بين عامي 1962 و1982، وعاش في عيناب اللبنانية في بيتٍ كالصومعة متفرّغًا للكتابة ومتذمرًا من الصخب حتى في أعالي الجبال. ثم انتقل للتدريس في جامعة جورج تاون منذ العام 1982 إلى أن تقاعد في العام 1994، وتولّى في تلك الفترة أيضًا كرسي الدراسات العربية التابع للشيخ صباح السالم الصباح في مركز الدراسات العربية المعاصرة. ثم تمّ تعيينه في وقت لاحق أستاذًا فخريًّا بعد تقاعده.

من الخمسينيّات وحتى وفاته في العام 2000، كرّس بطاطو حياته ليَدرُس ويُعلّم ويكتب عن تاريخ الشرق الأوسط الحديث، وبشكل خاص عن العراق وسورية. رسمت كتابات حنا بطاطو أعلى المعايير بالنسبة إلى المؤرخين والباحثين، حيث وضع بشكل فعّال أساسًا علميًّا لدراسة التنمية المجتمعية في العراق الحديث وسورية الحديثة وتحليلها وتوثيقها تاريخيًّا. ويرتكز منهجه على علم الاجتماع السياسي، حيث يدرس بالتفصيل العوامل الاجتماعية للتنمية، مع التركيز بوجه خاص على التركيبة الاجتماعية للحركات السياسية المعنيّة.


حنا وشقيقُه طوني يتوسطهما شكري ابنُ شقيقتهما ماري

بدأ بطاطو دراسة تاريخ العراق في الخمسينيّات وقد تأثّر

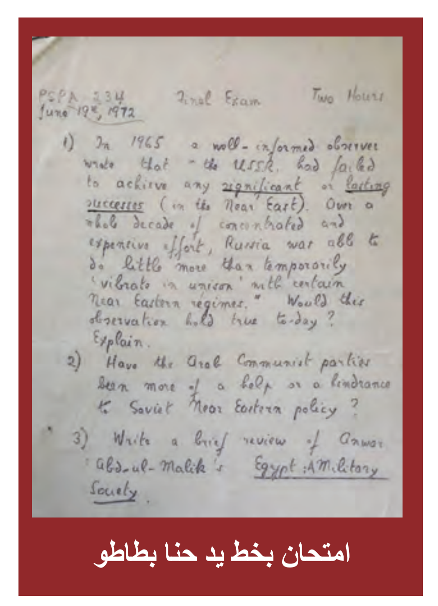


حنا مع شقيقه طوني وأفراد من عائلته الكبرى

بالحركات الثورية التي سادت آنذاك في ذلك البلد، وركّز بشكل خاص إنما ليس حصرًا على الحزب الشيوعي العراقي. منذ أواخر الخمسينيّات سافر بطاطو إلى العراق مرات عدة، ونجح في لقاء سجناء سياسيين شيوعيين كما استطاع الوصول إلى ملفات الشرطة السرية قبل وقوع ثورة 1958. وساعده خطاب توصية من صديق عراقي في الوصول إلى أرشيفات أجهزة الأمن تعود لفترات مختلفة من تاريخ العراق وصولًا إلى السبعينيّات. وبفضل هذه السجلات وعلاقاته المتشعّبة بشخصيات من مختلف الحركات السياسية تمكّن من كتابة دراسته عن التغيرات السياسيّة التي شهدها العراق تحت عنوان «الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق» (1978، برينستون). وشكّل عمله حول العراق دراسة بارزة لتاريخ العراق الحديث ومن أفضل الأعمال التي نُشرت عن منطقة الشرق الأوسط في النصف الثاني من القرن العشرين، حيث مهّد هذا العمل الطريق لأيّ دراسة تناولت العراق الحديث وتاريخه السياسي والاجتماعي والاقتصادي.



حنا بطاطو ووالدته إيفون في حفل زفاف أحد الأقرباء



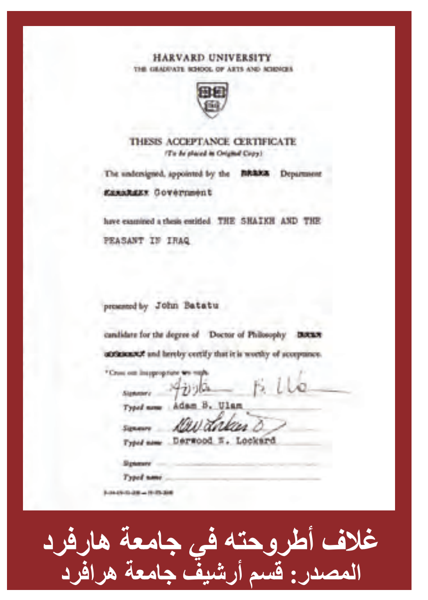
PSPA 234 Final Exam Two Hours
June 19th, 1972

1) In 1965 a well-informed observer wrote that "the USSR had failed to achieve any significant or lasting successes (in the Near East). Over a whole decade of concentrated and expensive effort, Russia was able to do little more than temporarily 'vibrate in unison' with certain Near Eastern régimes." Would this observation hold true to-day? Explain.

2) Have the Arab Communist parties been more of a help or a hindrance to Soviet Near Eastern policy?

3) Write a brief review of Anwar Abd-ul-Malik's Egypt: A Military Society.

امتحان بخط يد حنا بطاطو



HARVARD UNIVERSITY
THE GRADUATE SCHOOL OF ARTS AND SCIENCES

THESIS ACCEPTANCE CERTIFICATE
(To be placed in Original Copy)

The undersigned, appointed by the Department Government

have examined a thesis entitled THE SHAIKH AND THE PEASANT IN IRAQ

presented by John Batatu

candidate for the degree of Doctor of Philosophy and hereby certify that it is worthy of acceptance.

Signature
Typed name Adam B. Ulam

Signature
Typed name Derwood W. Lockard

Signature
Typed name

غلاف أطروحته في جامعة هارفرد
المصدر: قسم أرشيف جامعة هرافرد

هذا وأجرى بطاطو دراسة عن سورية، حملت عنوان «فلاحو سورية، أبناء وجهائهم الريفيّين الأقلّ شأنًا وسياساتهم» (1999، برينستون). وأشاد الأستاذ ل. كارل براون بهذا العمل إذ قال إن «بطاطو يجسّد العراقة من خلال بحثه الشامل والمذهل... إنّها دراسة اجتماعية سياسية متينة عن سكان الريف في سورية الحديثة وسيكون لها مكانتها بين الأعمال الكلاسيكية التي تتناول تاريخ الريف».

أمّا يحيى سادوفسكي، أستاذ دراسات الشرق الأوسط في كلّيّة بول نيتزه للدراسات الدولية المتقدمة التابعة لجامعة جونز هوبكنز، فوصف بطاطو بأنّه «ربما أعظم عالم سياسيّ يقوم بدراسة الشرق الأوسط في العقود الخمسة الماضية، وتحليلاته للعراق وسورية لم يسبق لها مثيل من حيث مستوى التفاصيل، وفهمها الدقيق، وقوّة استنتاجاتها».

وقال عباس أمانة، أستاذ تاريخ الشرق الأوسط الحديث في جامعة ييل، إن كتاب بطاطو المُبدع عن العراق «لا يزال يحتفظ بمكانته باعتباره من أبرز الأعمال التاريخية في شرق أوسط القرن العشرين». ورغم كلّ ما قيل، كان بطاطو يتحدى التصنيفات ويكرهها.

بالإضافة إلى أعماله البارزة والراسخة، كان بطاطو مُدرّسًا متفانيًا ومحبوبًا

ومُرشـدًا ملهمًـا لأجيـال مـن العلمـاء، ورجـلًا متواضعًـا وودودًا.

كانـت محاضراتـه شـاملة، ومُعـدة بدقـة، ومنظمـة، وغنيـة. ورغم أنـه كـرّس حياتـه للعلـم والمعرفـة، إلا أنّ عائلتـه ترفـض وصفـه بــ «الانعزالـي» بقـدر مـا كان مهتمًّـا بعـدم هـدر وقتـه. وكان يجتمـع فـي بعـض الأحيـان بطلابـه، ويدعوهـم لزيارتـه فـي منزلـه.
ألـمّ بـه الحـزنُ واسـتوطنَه إثـر انـدلاع حـرب الخليـج. لـم يصمـدْ جسـدُه طويـلًا ولـم يمهلْـه المـوتُ فرصـةً لإنهـاء عمـلٍ بـارز عـن تاريـخ فلسـطينَ مـا قبـل النكبـة يُضـاف إلـى كتابَيـه عـن العـراق وسـوريا.

بقـي قلمُـه ينبِـضُ حتـى الرمـق الأخيـر، وكتـب عنـه أترابُـه وطلابُـه وعارفـوه بعـد رحيلـه، ولعـلّ أبـرزَ مـا جمـع كلّ هـذه الكتابـاتِ إنمـا يتجسّـدُ فـي «الحاجـة إلـى حنّـا بطاطـو» فـي زمننـا هـذا.

* مصدرُ الصّور العائليّة: عائلتا بطاطو ورينود.

* مصدرُ غلاف الأطروحة: قسم الأرشيف في جامعة هارفرد.

حنّا بطاطو

بأقلام عارفيه ومتابعيه

تـمّ توثيـقُ مجموعـة مقـالاتٍ وآراء عـن حنّـا بطاطـو فـي عـددٍ كبيـر مـن الصحـف العربيـة والعالميـة. وتنـاول أصحـاب هـذه المقـالات -الذيـن كانـوا إمـا علـى معرفـة بحنّـا بطاطـو وإمّـا علـى تمـاسٍ مـع إنتاجاتـه- منهجَ بطاطـو وأهميـة كتاباتـه. كمـا كان لرحيلـه وقـعٌ كبيـر ومسـاحة جيـدة فـي الصحـف.


السفير 18

رحيل حنا بطاطو
أو الحاجة إلى مؤرخ

النهار ٢١

حول غياب المؤرخ الفلسطيني حنا بطاطو
العمر المكرّس للحقيقة والكشف

الحياة ١٣
أفكار

مناقشة إرث حنا بطاطو للعراق: تاريخ بلد لا يمكن ان يختصر بتاريخ حزب

الأيام
ذكريات شخصية
المعلم حنا بطاطو أستاذ جيل ..



Hanna Batatu, 74, Authority On Politics of Iraq and Syria

By ERIC PACE JUNE 29, 2000

Hanna Batatu, an authority on the contemporary Arab world who was best known for his writings on Iraq and Syria, died on Saturday at his home in Litchfield County in northwestern Connecticut. He was 74.

He had cancer, Georgetown University's Center for Contemporary Arab Studies said in announcing his death.

Dr. Batatu retired in 1994 as holder of the Shaykh Sabah Al-Salem Al-Sabah Chair of Contemporary Arab Studies at Georgetown.

حنا بطاطو: مؤرخ الطبقات الاجتماعية العربية الفذ

الأيام

غياب حنا بطاطو

العمر المكرّس للحقيقة والكشف..!

10 السفير

وداعا بطاطو

الأيام AL-AYYAM Saturday 1/7/2000 Issue No. 1627 Volume

كلمة أولى

حنا بطاطو، وداعا..!



السفير 9

كل ما هو متواضع على سطح الأرض

بعض ما جاء في كتاب المؤرخ الراحل

الريف.. العسكر.. والشباب في سوريا حنا بطاطو

10 CULTURE

الصدى الثقافي

منهج (حنا بطاطو) التاريخي

ما يرى ليس صحيحاً

كانت الصداقة نبيلة

دفاعاً عن كتابات حنا بطاطو وشخصه... أو ضد الماركسية المبتذلة

أسعد أبو خليل



12 ALHAYAT

IDEAS

التذكير بحنا بطاطو المتابع الأبرز لشؤون المجتمع العراقي

إبراهيم الحيدري

The Washington Post

OBITUARIES

Scholar Hanna Batatu, 74, Dies; Authority on Modern Iraq, Syria

حنا بطاطو العلامة، الناسك العلماني

Syria's Peasantry, the Descendants of Its Lesser

مكانة حنا بطاطو في الفكر العالمي

بيبليوغرافيا

قائمة بأعمال حنّا بطاطو

كتب:

Batatu, Hanna. 1999. Syria's Peasantry, the Descendants of Its Lesser Rural Notables , and Their Politics. New Jersey: Princeton University Press.

Batatu,Hanna. 1984. The Egyptian, Syrian and Iraqi Revolutions: Some Observation on Their Underlying Causes and Social Character. Washington: Centre for Contemporary Arab Studies.

Batatu, Hanna. 1978. The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of Its Communists, Bat'thists and Free Officers. New Jersey: Princeton University Press.

فصول في كتب:

Batatu, Hanna. 1993. "Of the Diversity of Iraqis, the Incohesiveness of their Society, and their Progress in the Monarchic Period towards a Consolidated Political Structure" The Modern Middle East: A Reader. Berkeley.

Batatu, Hanna. 1985. "Political Power and Social Structure in Syria and Iraq" Arab Society: Continuity and Change. London: Croom Helm.

Batatu, Hanna. 1979. "Class analysis and Iraqi society". Arab Studies Quarterly. Pluto Journals & Center for Islamic and Middle Eastern Studies (CIMES). California State University.

Batatu, Hanna. 1987. "Iraq's Shia: Their Political Role and the Process of Their Integration into Society." Islamic Impulse. Washington, DC: Center for Contemporary Arab Studies.

مقالات:

Batatu, Hanna. 1986. "Shi'i Organizations in Iraq: al-Da›wah al-Islamiyah and al-Mujahidin" in Shi›ism and Social Protest. New Haven, CT: Yale University.



Batatu, Hanna. 1986. “State and Capitalism in Iraq.” Middle East Report and Information Project. September/October 1986. http://www.merip.org/mer/mer142.

Batatu, Hanna. 1984. “Nieuwenhuis, Politics and Society in Early Modern Iraq.” Middle East Report and Information Project. September/ October. 1984.

Batatu, Hanna. 1983. “Some Reflections on the Decline of the Arab Left and of Iraq›s Communists.” Center for Contemporary Arab Studies (CCAS). Georgetown University, Washington.

Batatu, Hanna. 1982. “The Significance of Muhammad Baqir al-Sadr.” Middle East Report and Information Project. January/February 1982. http://www.merip.org/mer/mer102/significance-muhammad-baqir-al-sadr.

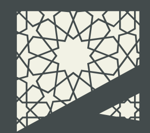
Batatu, Hanna. 1982. “Syria’s Muslim Brethren.” Middle East Report and Information Project. November/December 1982. http://www.merip.org/mer/mer110/syrias-muslim-brethren.

Batatu, Hanna. 1981. “Iraq’s Underground Shi’i Movements: Characteristics, Causes and Prospects” Middle East Journal. 35. 1981. Republished in Middle East Report and Information Project. January/February 1982. http://www.merip.org/mer/mer102/iraqs-underground-shii-movements.

Batau, Hanna. 1981. “Some Observations on the Social Roots of Syria’s Ruling Military Group and the Causes for its Dominance.” Middle East Journal 35.

Batatu, Hanna John. 1960. “Islam and Communism,” New York: The Institute for the Study of the USSR at the Carnegie International Center.





المجلس العربي للعلوم الاجتماعية
Arab Council for the Social Sciences
Conseil Arabe pour les Sciences Sociales

المجلس العربي للعلوم الاجتماعية
شارع جون كينيدي، رأس بيروت
بناية علم ألدين، الطابق الثاني
بيروت، لبنان

The Arab Council for the Social Sciences
John Kennedy Street, Ras Beirut
Alamuddin Building, 2nd Floor
Beirut – Lebanon

Tel : 961-1-370214
Fax: 961-1-370215
E-mail: assm@theacss.org

 ACSS_org

 The Arab Council for the Social Sciences

www.theacss.org


ISBN: 978-9953-0-4816-1